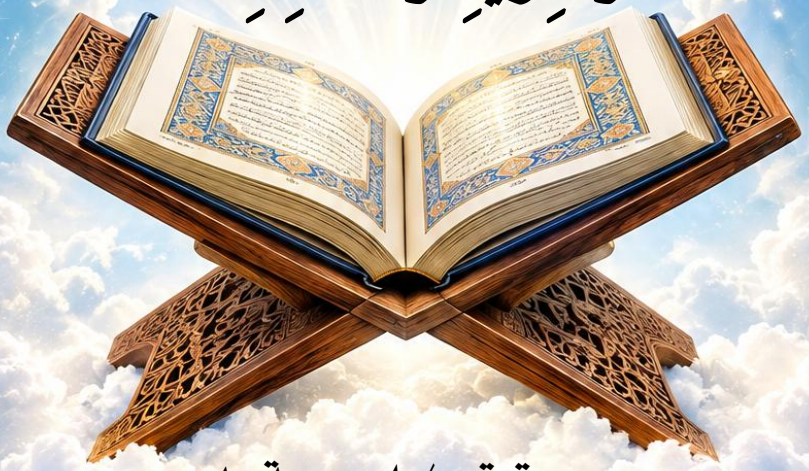
سورة الجاثية

دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ جَامِعَةٌ بِالْمَأْثُورِ وَالدِّرَايَةِ وَالْمَقَاصِدِ



جمع وترتيب / راجي رحمة ربه

فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

سورة الجاثية

دِرَاسَةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ جَامِعَةٌ بِالْمَأْثُورِ وَالدِّرَايَةِ وَالْمَقَاصِدِ

جمع وترتيب / راجي رحمة ربه

فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدايةً للناس، ونورًا للقلوب، وشفاءً لما في الصدور، وجعله كتابًا محكمًا تتجدد معانيه بتجدد النظر والتدبر، وتتكشف أسراره لمن أقبل عليه بعلم وإنصاف، وصلاةً وسلامًا على سيدنا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وبيّن للناس ما أنزل إليهم من ربهم. أما بعد:

فإن القرآن الكريم ليس كتابًا تُستوفى معانيه بمجرد الوقوف عند ظواهر ألفاظه، ولا نصًّا تُدرك مقاصده بعزل آياته عن سياقاتها؛ بل هو كتاب محكم البناء، مترابط الآيات، متآلف المقاطع، تتساند أجزاؤه، وتتآزر دلالاته، حتى تبدو السورة الواحدة كأنها بناء متكامل تتجه جميع أجزائه إلى تقرير حقيقة كبرى وإقامة الحجة عليها .ومن هنا كانت الحاجة إلى تفسير لا يكتفي بنقل الأقوال، ولا يقف عند شرح المفردات، بل ينفذ إلى المعنى، ويكشف عن نظم الآيات، ويحرر وجوه الدلالة، ويصل بين البيان القرآني ومقاصده الكبرى.

وقد جاء هذا العمل في تفسير سورة الجاثية محاولةً لإنشاء قراءة تفسيرية علمية مستقلة، تجمع بين أصالة التفسير بالمأثور، ودقة التحقيق بالدراية، وعمق التحليل اللغوي والبياني، والنظر في وحدة السورة ومقاصدها؛ ليكون النص تفسيرًا للقرآن الكريم، لا مجرد دراسة نظرية حوله، وليجد القارئ فيه شرحًا للآيات يكشف معانيها، ويقرّب دلالاتها، ويعين على إدراك الحكمة من ورودها في مواضعها، والغاية التي تنتظمها في سياق السورة.

أولًا :من تفسير الآية إلى اكتشاف بناء السورة

لم يُنظر في هذا التفسير إلى سورة الجاثية على أنها مجموعة من الآيات والموضوعات المتفرقة، وإنما عوملت بوصفها وحدة قرآنية متكاملة، تتدرج في عرض الحجة، وتنتقل بالقارئ من دلائل الوحي والخلق، إلى حقيقة العبودية والمسؤولية، ثم إلى مشاهد البعث والحساب، حتى تنتهي بإعلان الحمد لله رب العالمين، وانفراده بالكبرياء والعزة والحكمة.

وقد روعي في تفسير آياتها أن تبدأ المعالجة من النص القرآني نفسه؛ فيُبيّن المعنى الذي تدل عليه الآية، ثم تُحلل ألفاظها وتراكيبها، وتُكشف دلالاتها البيانية، وتُربط بما قبلها وما بعدها،

مع بيان موقعها من مقصد المقطع والسورة .وبذلك لا يبقى التحليل اللغوي أو البلاغي غاية مستقلة، وإنما يصبح وسيلة لفهم المراد القرآني وإبراز دقائقه.

فالسؤال في هذا التفسير ليس :ما المعنى اللغوي لهذه الكلمة فحسب؟ بل يتجاوز ذلك إلى : لماذا اختيرت هذه الكلمة في هذا الموضع؟ وما الذي أضافته إلى المعنى؟ ولماذا جاء هذا التركيب عقب ما سبقه؟ وكيف انتقلت الآيات من الحجة إلى النتيجة، ومن التقرير إلى الإنذار، ومن عرض الحقيقة إلى تصوير مآل المكذبين؟

وهذه الأسئلة هي التي وجهت النظر في السورة، وجعلت التفسير يسعى إلى إظهار اتصال الآيات، بدل تفكيكها إلى شروح منفصلة.

ثانيًا :الجمع بين المأثور والتحقيق والدراية

اعتمد هذا التفسير على أصل أصيل، هو تقديم القرآن في تفسير بعضه بعضًا، والاستعانة بالسنة الصحيحة، وما ثبت عن الصحابة والتابعين، مع الإفادة من جهود أئمة التفسير والتحقيق، وفي مقدمتهم الطبري، وابن عطية، والقرطبي، والرازي، وأبو حيان، وابن كثير، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم من أهل العلم.

ولم يكن المقصود جمع أقوالهم لمجرد الاستكثار، أو عرضها متتابعة دون مناقشة، وإنما استحضار ما يخدم فهم الآية، وتحرير المسائل التي تتعدد فيها الأقوال، وبيان منشأ الاختلاف ومستند كل اتجاه، ثم النظر في قوة الدليل النقلي واللغوي والسياقي.

فإذا تعددت الأقوال، لم يُجعل اختلافها بالضرورة اختلاف تضاد، بل نُظر في إمكان اجتماعها على اختلاف التنوع، وإذا ظهر التعارض، حُرر موضعه، وبُحث عن القول الذي يشهد له النص والسياق .وإذا لم يظهر مرجح معتبر، لم يُفرض الترجيح لمجرد إنهاء المسألة.

كما روعي التفريق بين التفسير المنقول، والاجتهاد التفسيري، والاستنباط والتدبر، والتنزيل المعاصر؛ حتى لا يُرفع الاحتمال إلى مرتبة القطع، ولا تُعرض الخاطرة التدبرية باعتبارها معنى الآية الأصلي.

وهذا الجمع بين المأثور والدراية هو أحد أبرز ملامح العمل؛ إذ يحفظ للتفسير صلته بأصوله العلمية، ويفتح في الوقت نفسه مجالًا للتحليل والتحرير، دون أن يطغى أحد الجانبين على الآخر.

ثالثًا :العناية بالنظم القرآني والبيان والسياق

من الخصائص التي اعتُني بها في هذا التفسير النظر في اختيار الألفاظ، ودقة التراكيب، ووجوه التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والقصر والتوكيد، والحذف والذكر، والانتقال بين الضمائر والخطابات.

ولم تُذكر هذه المسائل بوصفها مصطلحات بلاغية مجردة، بل جرى توظيفها في الكشف عن المعنى؛ لأن جمال البيان القرآني لا ينفصل عن هدايته، ودقة نظمه ليست زينة لفظية، وإنما هي جزء من إحكام الدلالة.

كما أُعطي السياق عناية خاصة؛ فالمعنى لا يُطلب من الآية منفردة فحسب، وإنما يُنظر في موقعها من المقطع، وفي اتصالها بما قبلها وما بعدها، وفي طبيعة الانتقال بين المعاني.

وقد روعي كذلك تصوير القرآن لحركة النفس الإنسانية؛ من الاستجابة إلى الإعراض، ومن الاعتبار إلى الاستكبار، ومن اتباع الحجة إلى اتباع الهوى، ومن الاغترار بالدنيا إلى مواجهة الحقيقة يوم القيامة .وهذا الجانب لا يُقصد به إسقاط نظريات نفسية حديثة على النص، وإنما إبراز ما يكشفه الخطاب القرآني نفسه من دوافع النفس وأحوالها ومآلات اختياراتها.

رابعًا :سورة الجاثية بوصفها رحلة في إقامة الحجة

تدور سورة الجاثية حول قضية كبرى تتصل بحقيقة التوحيد، وصدق الوحي، ومسؤولية الإنسان، وحتمية الرجوع إلى الله، وعدله في الجزاء.

وتبدأ السورة بإثبات مصدر الكتاب، وبيان أن تنزيله من الله العزيز الحكيم، ثم تفتح أمام الإنسان آفاق النظر في آيات السماوات والأرض، وما بث الله فيهما من دلائل قدرته وحكمته، وما في اختلاف الليل والنهار وإنزال الرزق وإحياء الأرض من بعد موتها من شواهد تستدعي الإيمان والاعتبار.

ثم تنتقل إلى تصوير موقف المعرضين عن آيات الله، وما يصاحب إعراضهم من استكبار واستهزاء، وتكشف أن المشكلة ليست في غياب الدليل وحده، بل قد تكون في موقف الإنسان من الدليل حين يخالف هواه وموروثه ومصالحه.

وتعرض السورة بعد ذلك نعم الله في تسخير البحر وما في السماوات والأرض، لتربط النعمة بواجب الشكر، ثم تقرر أن الإنسان مسؤول عن عمله، وأنه لا يحمل إلا تبعة كسبه، وأن الجزاء قائم على العدل والحكمة.

ومن هنا تستحضر تجربة بني إسرائيل، وما آتاهم الله من الكتاب والحكم والنبوة والرزق والبينات، ثم ما وقع بينهم من اختلاف بعد مجيء العلم، لتكون التجربة شاهدًا على أن امتلاك العلم لا يكفي وحده ما لم يصحبه إخلاص واتباع للحق.

ثم يأتي الأمر باتباع شريعة الله، والتحذير من اتباع الأهواء، وبيان أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون .وبعد ذلك تواجه السورة إنكار المجرمين للبعث، وترد على تصورهم الذي يحصر الوجود في الحياة الدنيا، وتقرر انفراد الله بسلطان الإحياء والإماتة والجمع ليوم القيامة.

وتبلغ الحجة غايتها في مشاهد قيام الساعة، حين يظهر الملك المطلق لله، وتجثو كل أمة، وتدعى إلى كتابها، وتنكشف الأعمال، ويحيط العذاب بمن استهزأ بالآيات واغتر بالحياة الدنيا.

ثم تختم السورة بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، وتقرير الكبرياء في السماوات والأرض، والعزة والحكمة؛ ليعود القارئ إلى الحقيقة التي انطلقت منها السورة : أن هذا الكون كله ملك لله، وأن الوحي منه، وأن الحكم له، وأن المرجع إليه.

وهكذا تتكامل حركة السورة :من دلائل الخلق والوحي، إلى مسؤولية الإنسان، إلى حقيقة البعث والجزاء، حتى ينتهي الخطاب إلى إعلان ربوبية الله المطلقة.

خامسًا :منهج علمي يقوم على الأمانة والتحقيق

لم يكن المقصود في هذا العمل إظهار كثرة المعلومات أو حشد أسماء المصادر، وإنما تقديم المعنى المحرر بأمانة علمية .ولذلك روعي التثبت من النصوص القرآنية، وضبط الآيات وأرقامها

وفق المصحف المعتمد، والتمييز بين الروايات الصحيحة والضعيفة، وعدم الجزم بسبب نزول أو فضل أو قراءة إلا بمستند معتبر.

كما اعتُمد توثيق المصادر بأرقام متسلسلة داخل المتن، ثم جمعها في قسم مستقل للهوامش والمراجع المستخدمة، مع الاقتصار على الكتب والمصادر التي أمكن التحقق من وجودها ومن مواضع الاستفادة منها، سواء أكانت مطبوعة أم متاحة في المكتبات الإلكترونية.

ولم تُجعل الإحالات وسيلة لإضفاء مظهر أكاديمي على النص، بل أداة تمكّن القارئ والباحث من مراجعة ما نُقل، والتمييز بين القول الموروث والتحليل المستقل .فما لم يمكن التحقق منه لم يُنسب إلى مصدر على سبيل الجزم، وما لم يثبت لم يُبن عليه معنى قطعي.

سادسًا :ماذا سيجد القارئ في هذا التفسير؟

سيجد القارئ معالجة تفسيرية تتدرج معه من ظاهر الآية إلى عمق دلالتها، ومن المفردة إلى التركيب، ومن التركيب إلى السياق، ومن السياق إلى مقصد المقطع والسورة.

وسيجد عناية بأقوال المفسرين دون أن يتحول النص إلى استعراض لها، ومناقشة للخلاف دون إطالة لا تخدم المعنى، وتحليلًا لغويًا وبيانيًا دون إغراق في المصطلحات، واستنباطًا تربويًا ومقاصديًا لا ينفصل عن الدلالة الأصلية.

كما سيجد أن تفسير الآيات ليس نهاية العمل، بل تتبعه دراسة جامعة للنظم والوحدة الموضوعية، ثم استخلاص للمقاصد والهدايات الكلية، ثم خاتمة تفسيرية تعيد بناء صورة السورة كاملة، وتكشف عن رسالتها الجامعة.

وليس المراد أن تُستخرج من كل آية حكمة مستقلة أو موعظة منفصلة، وإنما أن يُرى كيف تتضافر الآيات في بناء المعنى، وكيف تتكامل المقاطع في إقامة الحجة، وكيف تنتهي التفاصيل إلى حقيقة قرآنية واحدة تنتظم السورة كلها.

كلمة أخيرة إلى القارئ

إن سورة الجاثية تضع الإنسان أمام أسئلة لا يستطيع أن يتجاوزها دون أن يحدد موقفه من الوجود والوحي والمصير :من خلق هذا الكون؟ ومن دبّر أمره؟ ومن أنزل الكتاب؟ وما

حقيقة الإنسان أمام النعم والآيات؟ وهل يستوي من اتبع الحق بمن أعرض عنه؟ وهل تنتهي الحياة بالموت، أم أن وراءها يومًا تجتمع فيه الخلائق وتنكشف فيه الأعمال؟

والسورة لا تعرض هذه القضايا عرضًا ذهنيًا مجردًا، بل تقود القارئ بين مشاهد الكون، وشواهد الوحي، وتجارب الأمم، وأحوال النفوس، ومواقف المكذبين، حتى تنتهي به إلى مشهد القيامة، حيث تزول الأوهام، وتسقط دعاوى الاستكبار، ويظهر لكل إنسان حقيقة ما قدمت يداه.

ومن هنا فإن قراءة هذا التفسير ليست مجرد رحلة في معاني المفردات والتراكيب، بل هي محاولة لفهم البناء القرآني الذي يحمل الإنسان من رؤية الآيات إلى إدراك الحق، ومن إدراك الحق إلى مسؤولية الاستجابة، ومن مسؤولية الاستجابة إلى اليقين بلقاء الله.

فالغاية من هذا العمل أن يخرج القارئ من قراءة سورة الجاثية وقد أدرك أنها ليست مجرد عرض لأدلة التوحيد والبعث، بل بناء قرآني متكامل يرد الإنسان إلى حقيقة عبوديته، ويوقظه من سلطان الهوى والاغترار، ويضعه أمام عدل الله وحكمه، حتى يستقر في قلبه أن الملك لله، والحمد لله، والحكم لله، وإليه المصير.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لقارئه، موافقًا لكتابه، وأن يرزقنا العلم بما أنزل، والفقه في آياته، وحسن التدبر والعمل، وأن يجنبنا القول عليه بغير علم، إنه سميع قريب مجيب.

القسم الأول :بين يدي سورة الجاثية

اسم السورة وتسميتها

سورة الجاثية هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف الشريف، وسميت بهذا الاسم لوقوع لفظ الجاثية في قول الله تعالى :﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٨

الجاثية هي الباركة على ركبها، من شدة الموقف وهول الانتظار، حين تجتمع الأمم للحساب، وتُدعى كل أمة إلى كتاب أعمالها، لتواجه ما قدمت في حياتها من خير أو شر.

وليس اختيار هذا الاسم مجرد تسمية بلفظة وردت في السورة، بل هو استحضار للمشهد الذي تبلغ إليه حجج السورة ومجادلاتها، فالسورة تبدأ بعرض آيات الله في الآفاق والأنفس، وتكشف موقف الناس من الوحي والبعث، ثم تنتهي بتصوير الموقف الذي ينكشف فيه الحق انكشافًا لا يبقى معه مجال للإنكار أو الاعتذار.

ويُذكر للسورة أيضًا اسم "الشريعة" باعتبار ورود قوله سبحانه :﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾

واسم "الدهر" باعتبار ورود لفظه في الآية الرابعة والعشرين .غير أن الاسم المشهور المثبت في المصاحف وكتب التفسير هو سورة الجاثية .

مكيتها وعدد آياتها وترتيبها

السورة مكية في الجملة، وقد نقل ابن عطية أنها مكية بلا خلاف، مع ورود أقوال في استثناء بعض آياتها، ولا سيما قوله سبحانه :﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، وما يتصل بها من الآية الرابعة عشرة.

وقد وردت روايات في ربط نزولها بموقف وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رجل من المشركين، لكن لا يصح تحويل مجرد ورود هذه الروايات في كتب التفسير إلى جزم بسبب نزول الآية دون تحرير أسانيدها وطرقها.

وأما عدد آياتها، فالمثبت في مصحف المدينة برواية حفص عن عاصم سبع وثلاثون آية، وهو العد الذي سألتزم به في هذه الدراسة .وقد ذكرت كتب علوم القرآن اختلافًا في عد آيها

بين بعض الأمصار، فعدها بعضهم ستًا وثلاثين، وعدها أهل العدد الكوفي سبعًا وثلاثين، لاختلافهم في عد بعض المواضع، ومن ذلك عد الحروف المقطعة في أول السورة .

وأما ترتيب نزولها، فتذكر بعض كتب ترتيب النزول أنها نزلت بعد سورة الدخان وقبل سورة الأحقاف، لكن ترتيب النزول لا يبلغ في جميع تفاصيله درجة القطع، ولذلك لا ينبغي أن يُجعل هذا الترتيب أساسًا لتقرير مناسبة قطعية بين السورتين.

فضل السورة وما ورد في شأنها

لم أقف في المصادر التي تحققت منها على حديث صحيح صريح يثبت فضلًا خاصًّا لسورة الجاثية بخصوصها، ولذلك لا أنسب إليها فضيلة مخصوصة دون دليل ثابت.

ويدخل فضلها في عموم فضل القرآن الكريم وتلاوته وتدبره والعمل به .ومنهج التحقيق هنا أن يُفرَّق بين فضل القرآن العام، وبين تخصيص سورة بعينها بفضل أو ثواب يحتاج إلى دليل مستقل.

مقصد السورة العام

الذي يظهر من مجموع السورة أن قضيتها المركزية هي **إقامة الحجة على انفراد الله بالربوبية والألوهية، وصدق الوحي، وحتمية البعث والجزاء، وكشف عاقبة من اتبع الهوى وأعرض عن آيات الله، في مقابل مصير أهل الإيمان واليقين.**

وتنتظم هذه القضية في بناء متدرج:

تبدأ السورة بإثبات مصدر القرآن، ثم تستدعي آيات الكون والخلق والنفس لتقيم البرهان على قدرة الله ووحدانيته، وتكشف بعد ذلك موقف المكذبين من الوحي، وما يحركهم من استكبار واتباع للهوى .ثم تنقل النظر إلى سنن الاختلاف في الأمم، وتجعل تجربة بني إسرائيل شاهدًا على أن العلم إذا لم يصحبه انقياد قد ينقلب إلى بغي وتفرق.

ومن هذا تنتقل إلى بيان حقيقة الشريعة التي جعل الله رسوله ﷺ عليها، ووجوب اتباعها دون أهواء الجاهلين، ثم تقيم الحجة على بطلان التسوية بين أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل الإجرام، وتكشف فساد اتخاذ الهوى إلهًا وإنكار البعث.

ثم يبلغ السياق غايته في مشهد القيامة؛ حيث تجثو الأمم، وتُعرض الكتب، وتظهر الأعمال، وينكشف مصير الفريقين .وتُختم السورة بالحمد لله رب العالمين، وإثبات الكبرياء له في السماوات والأرض، وبالاسمين اللذين افتتحت بهما السورة بعد الحروف المقطعة :العزيز الحكيم.

فالمطلع والخاتمة متصلان اتصالًا محكمًا؛ إذ افتتحت السورة بإثبات أن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، واختتمت بإثبات العزة والحكمة له، فكأن السورة كلها تفصيل لما يقتضيه هذان الاسمان من سلطان وحكم وتدبير وعدل.

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

جاءت سورة الجاثية بعد سورة الدخان، وهما من سور الحواميم، وقد اشتركتا في افتتاحهما بالحروف المقطعة "حم"، وفي تأكيد مصدر التنزيل الإلهي، وإقامة الحجة على المكذبين، والتذكير بالبعث والجزاء.

غير أن لكل سورة بناءها الخاص؛ فسورة الدخان تبرز إنزال الكتاب في ليلة مباركة، وما يتصل بذلك من الإنذار والرحمة، وتعرض مشاهد من مصائر الأمم، بينما توسع سورة الجاثية دائرة الاستدلال بآيات الكون والإنسان، وتناقش إنكار البعث والدهرية، ثم تفصل مشهد الحساب وجثو الأمم أمام كتب أعمالها.

وأما صلتها بسورة الأحقاف، فتظهر في استمرار خطاب الحواميم في تقرير مصدر الوحي، وإقامة البراهين على وحدانية الله، والتحذير من الإعراض عن الرسالة، والتذكير بمصائر المكذبين .ولا يلزم من هذا التشابه أن تكون كل جزئية في السورتين مرتبطة بأخرى ارتباطًا مباشرًا، وإنما المقصود بيان وحدة المقصد العقدي العام في هذا السياق من المصحف .

المحاور الكبرى والحركة الموضوعية للسورة

يمكن رد بناء السورة إلى ستة محاور مترابطة، لا على أنها موضوعات منفصلة، بل باعتبارها مراحل متتابعة في إقامة الحجة:

- **المحور الأول :مصدر الوحي وآيات الله في الآفاق والأنفس**، من الآية الأولى إلى الآية السادسة؛ وفيه تأسيس حجية الكتاب وربط الإيمان بالنظر في دلائل الخلق.

- **المحور الثاني :موقف المكذبين من الوحي وعاقبة الاستكبار**، من الآية السابعة إلى الآية الحادية عشرة؛ وفيه كشف حال من يسمع الآيات ثم يصر ويستهزئ.
- **المحور الثالث :نعم التسخير ومسؤولية الإيمان والعمل وسنن الاختلاف في الأمم**، من الآية الثانية عشرة إلى الآية العشرين؛ وفيه الانتقال من دلائل القدرة إلى مقتضيات الشكر والاتباع، ثم التحذير من البغي بعد العلم.
- **المحور الرابع :فساد التسوية بين المؤمنين والمجرمين وبطلان اتباع الهوى وإنكار البعث**، من الآية الحادية والعشرين إلى الآية السابعة والعشرين؛ وفيه تقرير عدل الله وحكمة الخلق والجزاء.
- **المحور الخامس :مشهد القيامة وظهور نتائج الأعمال**، من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الخامسة والثلاثين؛ وفيه تتحول الحجة التي كانت تُتلى في الدنيا إلى واقع مشهود.
- **المحور السادس :الحمد والكبرياء لله**، من الآية السادسة والثلاثين إلى الآية السابعة والثلاثين؛ وفيه ختام السورة بإثبات استحقاق الله وحده للحمد والعظمة والعزة والحكمة.

وهذا التقسيم تنظيمي، وستظهر أثناء التفسير صلات الآيات داخل كل محور، كما ستظهر الروابط بين المحاور نفسها.

المعنى الإجمالي للسورة

تقرر سورة الجاثية أن القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، وأن ما في السماوات والأرض وما في خلق الإنسان وانتشار الدواب وتعاقب الليل والنهار ونزول المطر وتصريف الرياح شواهد قائمة على وحدانية الخالق وقدرته وحكمته.

ثم تكشف أن وجود الدليل لا يستلزم حصول الإيمان لكل من بلغه؛ فقد يسمع الإنسان آيات الله ثم يعرض عنها استكبارًا، وقد يتخذها موضع سخرية إذا علم منها شيئًا .وتبين السورة أن المال والمكاسب والروابط التي يتخذها المشركون من دون الله لا تدفع عنهم عذاب الآخرة.

وبعد تقرير نعم الله في البحر وسائر ما في السماوات والأرض، توجه المؤمنين إلى ضبط موقفهم من الذين لا يرجون أيام الله، وتقرر أن عمل الإنسان عائد إليه، وأن الجزاء حق لا يتخلف .ثم تستحضر تاريخ بني إسرائيل، وما أوتوه من الكتاب والحكم والنبوة والبينات، وكيف وقع الاختلاف بينهم بعد العلم بسبب البغي، لتجعل ذلك عبرة للأمة في اتباع الشريعة وعدم الانقياد للأهواء.

ثم تقرر السورة أن أهل الإيمان والعمل الصالح لا يستوون مع الذين اجترحوا السيئات، وأن خلق السماوات والأرض قائم بالحق، وأن الجزاء مقتضى هذا الحق .وتعرض نموذجًا للإنسان الذي جعل هواه حاكمًا عليه، حتى صار ما يرغب فيه بمنزلة المعبود المتبوع، ثم تكشف فساد قول من حصروا الحياة في الدنيا ونسبوا الموت إلى الدهر، وعجزهم عن إقامة برهان على إنكار البعث.

وعندما يعجز المكذبون عن الحجة لا يقدمون دليلًا على بطلان البعث، وإنما يطالبون بإحضار آبائهم، فيأتيهم الجواب بأن الله الذي أحياهم أول مرة هو الذي يميتهم ثم يجمعهم ليوم القيامة .وهناك يظهر الفرق بين الفريقين :أمة تجثو، وكتاب ينطق بالحق، وأعمال لا تضيع، ومؤمنون يدخلهم ربهم في رحمته، وكافرون يواجهون عاقبة الاستكبار والاستهزاء والغفلة.

وتنتهي السورة بإرجاع الحمد كله إلى الله، رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، وإثبات الكبرياء له في السماوات والأرض؛ لأنه العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم الذي لا يضع أمرًا إلا في موضعه.

القسم الثاني :التفسير التفصيلي لسورة الجاثية

المقطع الأول :تنزيل الكتاب وإقامة الحجة بآيات الله في الكون والإنسان

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾. سورة الجاثية :الآيات ١-٦ .

افتتاح السورة :من مصدر الكتاب إلى شواهد الكون

قال الله تعالى :﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ .سورة الجاثية :الآيتان ١-٢.

تفتتح السورة بالحروف المقطعة "حم"، وهي من الحروف التي افتتحت بها طائفة من سور القرآن، وقد تعددت أقوال أهل التفسير في المراد بها، فمنهم من أمسك عن تعيين معناها، ورد علمها إلى الله، ومنهم من نظر إليها في سياق التحدي والإشارة إلى أن القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف التي يعرفها العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.

والذي ينبغي ضبطه هنا أن ورود هذه الحروف في أوائل السور لا يبيح الجزم بمعنى تفصيلي لها لم يقم عليه دليل ثابت .أما ما يظهر من موقعها في افتتاح السورة فهو أنها تستوقف السامع، وتقدم بين يدي ذكر الكتاب الذي تحدى به القرآن العرب، وأقام به الحجة على الخلق.

ثم جاء قوله :﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبرًا يقرر حقيقة هذا القرآن ومصدره .والتعبير بالتنزيل يفيد صدور الكتاب عن جهة عليا، وأنه ليس كلامًا ابتدعه بشر، ولا قولًا نشأ عن تجربة إنسانية أو اجتهاد شخصي، بل هو منزل من عند الله .وقد اختير لفظ "الكتاب" معرفًا؛ لأن المراد كتاب معلوم في مقام الخطاب، هو القرآن الذي يتلوه الرسول ﷺ على الناس، ويحمل إليهم هدى الله وشرعه.

وفي قوله :﴿مِنَ اللَّهِ﴾ تقرير لأصل القضية التي ستبني السورة عليها حججها :أن المرجع في الهدى والحكم والخبر عن الغيب هو الله، وأن الوحي لا يستمد حجيته من قبول الناس له، بل

من مصدره الإلهي .ومن هنا كان إنكار المكذبين له إنكارًا لما ثبتت حجيته من جهة مصدره، لا مجرد اختلاف في رأي بشري.

ثم وصف الله نفسه بقوله :﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فجمع بين العزة والحكمة؛ فالعزيز هو الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، والحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، ويجري أمره على مقتضى العلم والإحكام .واقتران الاسمين هنا مناسب لمقام التنزيل :فالكتاب صادر عن رب لا يُغلب، فلا يستطيع المكذبون أن يبطلوه أو يمنعوا نفاذ أمره، وهو حكيم، فلا ينزل كتابه عبثًا، ولا يأمر وينهى إلا لحكمة.

وفي هذا الافتتاح تمهيد لما سيأتي في السورة من ذكر الخلق والتسخير والبعث والجزاء؛ فهذه كلها آثار لعزة الله وحكمته، كما أن القرآن الذي يخبر عنها صادر عن صاحب العزة والحكمة.

ومن لطائف النظم أن السورة لم تبدأ بتفصيل دلائل الكون مباشرة، بل قدمت مصدر الوحي أولًا، ثم أتبعته بذكر الآيات الكونية؛ لتجمع بين آيتين متكاملتين :آية الوحي المتلو، وآية الكون المشهود .فالكتاب يدل على الله بخبره وبيانه، والكون يدل عليه بما أودع فيه من آثار القدرة والتدبير.

آيات السماوات والأرض :دلالة الخلق على الخالق

قال الله تعالى :﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣

بعد أن قرر أن الكتاب تنزيل من الله، نقل النظر إلى العالم المشهود، وجعل ما في السماوات والأرض مجالًا للتفكر والاستدلال .والمراد بالآيات هنا العلامات والدلائل الدالة على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته، بما في هذا العالم من إحكام الخلق، وانتظام التدبير، وتنوع الموجودات، وما يظهر فيها من آثار الرحمة والتقدير.

ولم يخصص النص نوعًا واحدًا من هذه الآيات، بل أطلقها لتشمل ما في السماوات من علوها واتساعها وأجرامها وما يجري فيها من نظام، وما في الأرض من جبال وبحار ومخلوقات ومنافع وأسباب معاش .فكل ذلك يدل على أن هذا الوجود لم ينشأ من غير موجد، ولم ينتظم على هذا الإحكام من غير مدبر.

وقوله :﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتضمن توجيه النظر إلى مجموع العالم العلوي والسفلي، فلا يحصر الدليل في مشهد قريب من الإنسان، بل يفتح أمامه مجال النظر في الوجود كله . وجاءت كلمة ﴿لَآيَاتٍ﴾ مؤكدة باللام، وفي ذلك تقوية لإثبات الدلالة، ودفع لما قد يعرض للغافل من إلف المشاهد حتى لا يعود يراها موضع اعتبار.

ثم قال :﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل للناس جميعًا، مع أن الآيات الكونية مشهودة لكل إنسان؛ لأن الانتفاع بها على وجه الاعتبار والهداية يتهيأ للمؤمن الذي يقبل الحق، وينظر في الدليل طلبًا للمعرفة، لا لمجرد المجادلة .وليس في ذلك نفي لإمكان استدلال غير المؤمن بهذه الآيات على وجود الخالق، وإنما بيان أن الإيمان هو الحال التي يكتمل معها الانتفاع بالآيات في باب الهداية والتصديق.

وهذا يبين أن القرآن لا يفصل بين النظر في الكون والإيمان، بل يجعل التفكر الصحيح طريقًا إلى معرفة الخالق، وأن الغفلة عن الدلالة لا تعني غيابها، وإنما قد تكون آفة في الناظر نفسه.

ثم خصّ الإنسان بمزيد من البيان بعد أن ذكر السماوات والأرض على سعتهما، فقال:

قال الله تعالى :﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ .سورة الجاثية : الآية ٤.

انتقل السياق من آيات العالم الواسع إلى خلق الإنسان نفسه، ثم إلى ما بث الله في الأرض من الدواب والمخلوقات .وهذا انتقال من الدليل الكوني العام إلى دليل أقرب إلى إدراك الإنسان ومشاهدته، إذ هو يرى خلقه، ويعرف أطوار حياته، ويشاهد تنوع الكائنات وانتشارها.

وقوله :﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ يشمل أصل الخلقة وما تضمنته من إحكام وتقدير، وما أودع في الإنسان من أعضاء وقوى وحواس، وما جُبل عليه من خصائص تميز جنسه وتعينه على أداء وظائفه .ولا ينبغي حصر الآية في جانب واحد من جوانب الخلق؛ لأن اللفظ أوسع من ذلك.

أما قوله :﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ فالبث هو التفريق والنشر، يقال بث الشيء إذا فرقه ونشره . والمعنى :وما ينشره الله في الأرض من الدواب، على اختلاف أجناسها وأحوالها وطرائق معاشها .وإسناد البث إلى الله يرد تنوع الحياة وانتشار المخلوقات إلى فعل الخالق وتدبيره، لا إلى مجرد وجود عارض لا حكمة وراءه.

وجاءت كلمة ﴿آيَاتٌ﴾ نكرة، لتفيد تعدد وجوه الدلالة وعظمتها؛ ففي خلق الإنسان دلائل، وفي اختلاف الدواب وتنوعها دلائل أخرى، وكلما ازداد الناظر معرفة بأحوال الخلق ظهرت له وجوه جديدة من إحكام الصنعة وتقدير الخلقة.

ثم قال :﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، نخص هذا الموضع بأهل اليقين .واليقين أعلى من مجرد الخاطر العابر أو المعرفة التي لم تستقر؛ إذ هو العلم الثابت الذي لا تزعزعه الشبهات .وهذا التدرج في أوصاف المنتفعين بالآيات ليس اختلافًا في أصل الدلالة، بل هو تنويع في أحوال الناظرين ومراتب انتفاعهم :فالمؤمنون يجدون في الآيات ما يقوي إيمانهم، وأهل اليقين يزدادون بها رسوخًا، كما سيأتي ذكر أهل العقل في الآية التالية.

تعاقب الليل والنهار ونزول المطر وتصريف الرياح

قال الله تعالى :﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ .سورة الجاثية :الآية ٥؛ يواصل السياق تعداد الدلائل، ولكنه ينتقل من ذكر الموجودات إلى ذكر الحوادث المتجددة التي يشاهدها الإنسان في حياته، ويعتمد عليها معاشه.

فقوله :﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يشمل تعاقبهما، وتفاوت طولهما وقصرهما، وما يترتب على ذلك من مصالح الخلق وانتظام أحوالهم .فالليل للسكون والراحة، والنهار للمعاش والحركة، وتغيرهما على نظام مقدر من آيات التدبير، إذ لا يملك الإنسان أن يمنع مجيء أحدهما أو يغير سنن تعاقبهما.

ثم ذكر نزول الرزق من السماء، فقال :﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾، والمراد بالرزق هنا المطر الذي يكون سببًا في حياة الأرض ونباتها، وسمي رزقًا باعتبار ما ينشأ عنه من

أقوات الناس والدواب .وقد عبر عنه بالرزق قبل أن يذكر أثره، ليلفت إلى أن المطر ليس مجرد ظاهرة كونية، بل هو من أسباب المعاش التي يسوقها الله إلى عباده.

ثم فصل أثر هذا الرزق بقوله :﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فأسند الإحياء إلى الله، وجعل المطر سببًا به تقع الحياة في الأرض .وهذا التعبير يجمع بين إثبات السبب وإثبات الفعل للخالق؛ فالماء سبب ظاهر للإنبات، لكن الإحياء والتقدير والتكوين لله وحده.

وفي تصوير الأرض بعد موتها ثم إحيائها بالماء إشارة إلى قدرة الله على الإعادة بعد الموت؛ فالذي يحيي الأرض بعد جدبها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها .وهذا المعنى سيعود في السورة عند مناقشة من أنكروا البعث، فيكون هذا الدليل الذي مر في أول السورة من شواهد القدرة التي يواجه بها إنكارهم لاحقًا.

ثم قال :﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، أي توجيهها وتقليبها في أحوالها وجهاتها ومنافعها، وما يكون في اختلافها من آثار في السحاب والمطر والحر والبرد، وفي مصالح الزرع والناس وسائر المخلوقات .والتصريف يدل على التنويع والتحويل من حال إلى حال، وهو أبلغ في إظهار التدبير من مجرد ذكر وجود الرياح؛ لأن الاعتبار ليس بوجودها فحسب، بل بما يقع فيها من اختلاف وتسخير ومنافع.

وختم الآية بقوله :﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .والعقل هنا ليس مجرد امتلاك القدرة الذهنية، بل استعمالها في إدراك الدلالة والانتقال من المشاهد إلى ما يدل عليه .فالمطر والرياح وتعاقب الليل والنهار مشاهد تتكرر، وقد يألفها الإنسان حتى لا يلتفت إلى دلالتها، لكن العقل الذي يتجاوز ظاهر العادة إلى اعتبار الحكمة والتدبير يرى فيها آيات الله.

وتتآزر أوصاف المنتفعين في الآيات الثلاث :الإيمان، واليقين، والعقل .وليس المقصود تقسيم الناس إلى أصناف منفصلة لا يجتمع بعضها في بعض، بل إبراز وجوه مختلفة من الاستعداد الذي به ينتفع الإنسان بالدليل :إيمان يفتح باب الاعتبار، ويقين يرسخ المعرفة، وعقل يحسن النظر والاستدلال.

من الآيات الكونية إلى حجة الوحي

قال الله تعالى :﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ .سورة الجاثية :الآية ٦.

بعد أن عرضت الآيات السابقة دلائل الله في السماوات والأرض والإنسان والدواب وتعاقب الليل والنهار والمطر والرياح، أعاد السياق هذه الدلائل إلى أصلها الجامع فقال : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾، أي هذه العلامات والدلائل التي تقدم ذكرها هي من آيات الله الدالة عليه وعلى كمال قدرته وحكمته.

واسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ يجمع ما سبق من الآيات في وحدة واحدة، كأن المعاني المتفرقة في المشاهد الكونية قد انتظمت في حجة جامعة، ثم جاء قوله :﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ لينقل السامع من الآيات المنظورة في الكون إلى الآيات المتلوة في القرآن .فالله يتلو على رسوله هذه الحجج بالوحي، والرسول يبلغها للناس، فلا تكون القضية مجرد تأملات بشرية في الطبيعة، بل بيانًا إلهيًا يفسر للإنسان دلالة ما يشاهد.

وقوله :﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يتعلق بالتلاوة، أي نتلوها تلاوة ملتبسة بالحق، ويحتمل أن يكون المراد أن ما تتضمنه من الأخبار والدلالات حق لا باطل فيه .والمعنيان متلازمان في المقام؛ فالقرآن حق في مصدره، وحق في خبره، وحق في دلالته وهدايته.

ثم جاء الاستفهام في قوله :﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إنكاريًا توبيخيًا، لا يراد به طلب تعيين حديث آخر، وإنما يراد به إظهار سقوط كل حجة بعد قيام حجة الله، وبيان أن من لم يؤمن بآيات الله البينات فأي كلام يمكن أن يبلغه فيكون أحق بالتصديق منها؟

والمراد بـ﴿حَدِيثٍ﴾ هنا ما يتلقاه الإنسان من قول وخبر، وقد خصه السياق بالإيمان والتصديق، لا بمجرد الاستماع .وفي التعبير ﴿بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ تعظيم لشأن الوحي والدلائل الإلهية، وأنها الأصل الذي ينبغي أن ترد إليه الأقوال والأخبار، لا أن تجعل أهواء البشر حاكمة عليها.

وقد قرأ الجمهور ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء على الغيبة، موافقًا لما سبق من الحديث عن الناس، وقرئ بالتاء على خطاب المواجهة في القراءات المنقولة؛ والوجه في القراءتين متصل بسياق التوبيخ،

غير أن نسبة القراءة وتفاصيل طرقها تحتاج إلى ضبط من كتب القراءات المعتمدة قبل الاستقصاء فيها، فلا أبني على هذا الموضع حكمًا زائدًا دون ذلك.

المقطع الثاني :الإعراض عن آيات الله والاستكبار والاستهزاء وعاقبة المكذبين

قال الله تعالى :﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ .سورة الجاثية :الآيات ٧-١١.

يستفتح ربنا بقوله العزيز في وصف المكذبين :﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ فبعد أن أقام الله الحجة في الآيات السابقة على وحدانيته، ودلّ على صدق آياته بما بثّ في الكون والأنفس من شواهد قدرته وتدبيره، ثم قرر أن ما يتلوه على رسوله حق لا ريب فيه، انتقل السياق إلى بيان حال الفريق الذي لا ينتفع بهذه الحجج، ولا يستجيب لما تقتضيه من الإيمان والإذعان؛ فكأن الآيات السابقة كشفت وضوح الدليل، وهذه الآية تكشف حقيقة الموقف المقابل له، وتبين أن الإعراض ليس دائمًا ناشئًا عن غياب البرهان، بل قد يكون منشؤه فساد الاعتقاد والقصد، وما يصحبهما من الكذب والإثم والاستكبار.

والويل لفظ وعيد وتهديد، يستعمل في الدعاء على الإنسان بالهلاك والشدة وسوء العاقبة، وقد نقل المفسرون فيه قولًا آخر بأنه اسم لوادٍ في جهنم .وقد ذكر الطبري هذا المعنى، بينما جعل ابن عطية مقتضى الاستعمال العربي أوسع من حصره في ذلك الوادي، إذ يحمل اللفظ على معاني الشدة والهلاك والمصيبة .والذي يظهر أن دلالة الوعيد في الآية ثابتة على كل حال، وأما تعيين الويل بوصفه موضعًا مخصوصًا في جهنم فيحتاج إلى ثبت من الرواية التي يستند إليها، فلا يتوقف فهم الآية عليه.

وقوله :﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يجمع وصفين يكشفان عن جانبين من الانحراف؛ فالأفّاك صيغة مبالغة من الإفك، وهو الكذب المصروف عن وجه الحق، وتكرار بناء المبالغة يدل على رسوخ هذه الخصلة وكثرتها في صاحبها، حتى كأن الكذب صار وصفًا غالبًا عليه .وأما الأثيم فهو كثير الإثم، المتجاوز حدود الله، المستمر على ما يوجب المؤاخذة.

وليس الجمع بين الوصفين تكرارًا لمعنى واحد؛ فالإفك يتصل بفساد القول والاعتقاد، والإثم يتصل بفساد العمل والسلوك .وقد يجتمعان في شخص واحد، فيكذب في خبره، ويعاند في موقفه، ثم يمضي في مخالفة الحق الذي عرفه أو قامت عليه حجته.

والتعبير بقوله :﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يخرج الوعيد من خصوص أشخاص معينين إلى كل من تحققت فيه هذه الصفات؛ فالعبرة ليست باسم رجل بعينه، وإنما بالوصف الذي استحق به الوعيد .وقد ذكرت بعض كتب التفسير أسماء من مشركي مكة في سياق تفسير الآية، كأبي جهل والنضر بن الحارث، لكن لا يصح الجزم بأن أحدهما هو السبب الخاص لنزولها دون رواية ثابتة .والأظهر أن الآية عامة في كل من اتصف بالإفك والإثم على النحو الذي تصفه الآيات التالية.

وهنا تتصل الآية اتصالًا وثيقًا بما قبلها؛ فبعد أن واجهت الآية السادسة المكذبين بسؤال توبيخي عن الحديث الذي يمكن أن يؤمنوا به بعد آيات الله، جاءت هذه الآية لتكشف نمطًا من أنماط استجابتهم :ليس مجرد عدم التصديق، وإنما الكذب والإصرار والإثم .وبذلك ينتقل الخطاب من إقامة الحجة إلى كشف الموقف النفسي والأخلاقي لمن يرفضها.

الإصرار والاستكبار عند سماع الوحي

قال الله تعالى :﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .هذه الآية تفصّل الوصف المجمل في قوله :﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، فتكشف عن صورة عملية لهذا الانحراف :رجل يسمع كلام الله يتلى عليه، وتبلغه الحجة، ثم لا يتخذ من سماعه طريقًا إلى الاعتبار، بل يستمر على موقفه الأول، كأن شيئًا لم يبلغه.

والتعبير بقوله :﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يلفت النظر إلى أن القرآن لا يواجهه في هذه الصورة من وراء حجاب أو بطريق غير مباشر، بل يسمعه متلوًّا عليه، فيكون الدليل حاضرًا، والبيان واقعًا على سمعه .والتلاوة هنا تحمل معنى إبلاغ الآيات على وجهها، لا مجرد وصول أصواتها إلى الأذن.

ثم جاء قوله :﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾، والإصرار هو الثبات على الشيء والمضي فيه وعدم الرجوع عنه . واختيار "ثم" يفيد التراخي الرتبي، ويصور التناقض بين مقتضى السماع وحقيقة الاستجابة؛

إذ كان المنتظر ممن يسمع آيات الله أن يتفكر فيها، ويعيد النظر في موقفه، أما أن يسمع ثم يصر، فذلك انتقال من موضع كان ينبغي أن يفضي إلى الهداية إلى موقف يتعمد فيه صاحبه البقاء على الضلال.

ولم يقل :ثم يكفر فحسب، بل قال :﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾، ليكشف عن الدافع الذي يقف وراء هذا الثبات؛ فليس الأمر مجرد عجز عن فهم الدلالة، بل هو امتناع عن الانقياد لما تقتضيه . والاستكبار هنا يتضمن التعاظم عن قبول الحق، والامتناع عن الخضوع لله، مع أن الآيات التي سمعها جديرة بأن تحمل صاحبها على التواضع والتسليم.

وتتجلى دقة النظم في قوله :﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ فلم يقل :كأنه لم يفهمها، بل صوّر حاله كحال من لم يقع له السماع أصلًا .وهذا تصوير بليغ للإعراض الاختياري؛ إذ إن السماع قد تحقق، ولكن أثره في الموقف معدوم، فكأن صاحبه محا من نفسه مقتضى ما سمعه، وأعرض عنه إعراض من لم يبلغه شيء.

وليس المراد أن مجرد السماع يوجب الإيمان في كل حال، أو أن كل من لم يؤمن فقد سمع الآيات بالضرورة، وإنما الآية تصف من قامت عليه الحجة وبلغته الآيات ثم قابلها بالإصرار والاستكبار .وبهذا يظهر الفرق بين من لم يبلغه البيان، ومن بلغه فلم يفهمه لعذر، ومن بلغه وأدرك دلالته ثم امتنع عن قبوله استكبارًا.

ثم يأتي قوله :﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهو أمر للنبي ﷺ بإبلاغ هذا الوعيد .واختيار لفظ البشارة مع العذاب يحمل تهكمًا وتهديدًا؛ لأن البشارة في أصل استعمالها إعلام بما يسر، فجاءت هنا في مقابل ما يوجع، فاشتد أثرها في النفس بسبب المفارقة بين اللفظ وما يدل عليه .وليس ذلك من البشارة المحمودة، وإنما هو من الأسلوب العربي الذي يستعمل اللفظ في ضده على سبيل التهكم والوعيد.

وإفراد الضمير في ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بعد قوله :﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ يجري على مراعاة لفظ "كل"، ثم يعود السياق إلى الجمع في الآية التالية :﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، مراعاة لمعنى الجنس وتعدد أفراده.

وفي هذا دليل على أن العلم بالحق لا ينفع صاحبه بمجرد حصوله في الذهن، ما لم يصحبه قبول وانقياد، فالسماع الذي لا يثمر اعتبارًا، والمعرفة التي تتحول إلى إصرار، قد تكون حجة على صاحبها بدل أن تكون عذرًا له.

اتخاذ آيات الله هزوًا وعاقبة الاستهزاء بالوحي

قال الله تعالى :﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .بعد أن وصف الله حال المستكبر الذي يسمع الآيات ثم يصر على موقفه، انتقل إلى صورة أشد في الانحراف، وهي أن يتحول ما بلغه من الوحي إلى مادة للاستهزاء والسخرية .فليس هذا المعرض مجرد إنسان لم ينتفع بما سمع، بل هو إنسان يتجاوز الإعراض إلى اتخاذ آيات الله موضعًا للاستخفاف، وكأنما يريد أن يقلب مقام البيان والحجة إلى مقام السخرية والانتقاص.

وقوله :﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ يتضمن معنى بلوغ شيء من الآيات إلى علمه، وليس المراد بالعلم هنا بالضرورة العلم المحيط بحقائق الوحي وأسراره؛ إذ لو تحقق له العلم الهادي الذي يورث معرفة الحق والإذعان له، لما اتخذ الآيات هزوًا .وإنما المقصود أنه بلغه شيء منها، أو عرف شيئًا من مضمونها، ثم قابل ذلك بالاستخفاف.

وقد ذكر ابن عطية في تفسير هذه الآية أن معنى القراءة المشهورة "عَلِمَ" أنه أُخبر بشيء من الآيات فعرف الخبر، لا أنه أحاط بحقيقة المعنى الذي تضمنه الوحي .وهذا تحرير مهم؛ لأنه يمنع من توهم التناقض بين وصفه بالعلم وبين اتخاذه الآيات هزوًا .فليس كل علم يحصل في النفس علمًا نافعًا، وقد يعرف الإنسان مضمون الكلام من جهة وصول الخبر إليه، ثم يمنع نفسه من الانقياد لما يقتضيه.

وقوله :﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ يدل على أن الاستهزاء قد يقع ببعض الآيات أو بشيء من مضمونها، فلا يشترط أن يحيط المستهزئ بجميع الوحي حتى يدخل في الوعيد .واختيار لفظ ﴿شَيْئًا﴾ يفيد العموم في القدر الذي يبلغه من الآيات، أيًّا كان ذلك القدر، فإذا قابله بالاستهزاء فقد وقع في المحذور.

وأما قوله :﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، فالهزء هو السخرية والاستخفاف، واتخاذ الشيء هزوًا أبلغ من مجرد وقوع السخرية العارضة؛ لأنه يشعر بجعل الآيات نفسها موضعًا للاستهزاء، والتعامل

معها على أنها لا تستحق التعظيم والاعتبار .والضمير في ﴿اتَّخَذَهَا﴾ عائد إلى الآيات، وجاء مفردًا مؤنثًا باعتبار جمع غير العاقل، وهو استعمال عربي مطرد.

وهنا يظهر الفرق بين الآية السابقة وهذه الآية :فالأولى تصف الإصرار بعد السماع، والثانية تكشف تجاوز ذلك إلى الاستهزاء بما علمه من الآيات .والإصرار امتناع عن الرجوع إلى الحق، أما الاستهزاء فاعتداء على مقام الحق نفسه، ومحاولة لصرف النفوس عن تعظيمه.

وقد أورد الطبري في تفسير الآية مثالًا من استهزاء أبي جهل بما أخبر به القرآن من شجرة الزقوم، حين قابل الوعيد بالسخرية، وهو مثال يوضح كيفية انتقال المكذب من رفض الخبر إلى تحويله مادة للهزء .غير أن المثال لا يقتضي حصر الآية فيه، بل هو من أفراد السلوك الذي تتناوله دلالتها العامة.

ثم قال الله تعالى :﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .انتقل التعبير من الإفراد في وصف الشخص إلى الجمع في تقرير الجزاء؛ لأن المقصود ليس فردًا بعينه، وإنما جماعة تتحد في هذه الصفات . واسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ يفيد الإبعاد، وفيه ما يناسب مقام التوبيخ والتهديد، كأنهم قد بلغوا من قبح صنيعهم مبلغًا استحقوا معه أن يشار إليهم إشارة إبعاد.

ووصف العذاب بأنه ﴿مُهِينٌ﴾ مناسب تمام المناسبة لجريمة الاستكبار والاستهزاء؛ فمن استكبر عن الخضوع للحق، واستخف بآيات الله، كانت عقوبته مشتملة على الإذلال والإهانة . فالعقوبة هنا ليست ألمًا مجردًا، بل فيها من جنس ما يناقض حالهم التي اتخذوها في الدنيا؛ إذ طلبوا العلو بالاستكبار، فجاءهم الجزاء بالهوان.

وهذا من دقة المقابلة في الخطاب القرآني :استكبار في الدنيا يقابله عذاب مهين في الآخرة، واستخفاف بآيات الله يقابله سقوط ما كانوا يتوهمونه من عزة وقوة .وليس المقصود أن الجزاء محصور في صورة واحدة، وإنما أن وصف العذاب جاء موافقًا لطبيعة الجناية ومناسبًا لها.

انقطاع أسباب النجاة وسقوط ما اتخذوه من دون الله أولياء

قال الله تعالى :﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .لما ذكر الله عذاب المستهزئين، انتقل إلى بيان ما يواجههم

من العاقبة، وما يسقط عنهم من أسباب النجاة التي تعلقوا بها في الدنيا؛ فلا ينفعهم ما جمعوا من مال، ولا ما اكتسبوا من جاه أو قوة، ولا ما اتخذوه من دون الله أولياء يظنون أنهم ينصرونهم أو يدفعون عنهم العذاب.

وقوله :﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من التعبيرات التي ينبغي تحريرها في ضوء الاستعمال العربي والسياق .فالوراء في أصل اللغة ما يكون خلف الشيء، ويستعمل كذلك لما يأتي بعده في الزمان .وقد ناقش ابن عطية القول بأن المراد بالوراء هنا أمامهم، وبيّن أن حمله على ما يأتي بعد أعمالهم في الزمن أظهر في الاستعمال؛ لأن جهنم آتية بعد حياتهم التي استكبروا فيها واستهزؤوا بالآيات.

فالمعنى أن جهنم تنتظرهم، وأن مصيرهم الذي لا يستطيعون دفعه واقع وراء حياتهم الدنيا، وإن غفلوا عنه أو استبعدوه .وفي هذا التعبير تصوير لعاقبة تقترب منهم وهم لا يشعرون، فلا يغتروا بإمهال الله لهم، ولا يحسبوا أن تأخر العقوبة دليل على انتفاء الوعيد.

ويأتي قوله :﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ ليهدم تعلقهم بما جمعوه في الحياة الدنيا . والكسب يتناول ما يحصل عليه الإنسان من مال أو منفعة أو أسباب قوة، وقد يدخل فيه ما يظنه صاحبه معينًا له على دفع العذاب .والنفي هنا مطلق في جهة الإغناء عنهم من عذاب الله، فلا يستطيع شيء مما كسبوه أن يدفع عنهم شيئًا من الجزاء.

والتعبير بـ﴿شَيْئًا﴾ يؤكد استئصال النفع الموهوم؛ فلا يملك ما جمعوه أن ينقص من العذاب أدنى قدر، مهما عظم في أعينهم أو شغل قلوبهم في الدنيا.

ثم أكد ذلك بنفي آخر فقال :﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ .فبعد أن نفى أثر الأسباب التي اكتسبوها بأيديهم، نفى أثر من اتخذوهم أولياء من دون الله، ممن تعلقوا بهم في العبادة أو النصرة أو الرجاء.

والأولياء هنا يدخل فيهم ما عبدوه من الأصنام، وما تعلقوا به من معبودات باطلة، كما يدخل في معنى الولاية من اتخذوهم أنصارًا يعتمدون عليهم في مواجهة الحق .وقد ذكر الطبري أن المراد يشمل آلهتهم ورؤساءهم الذين أطاعوهم في الكفر واتخذوهم نصراء في الدنيا.

وهذا النظم يجمع بين نوعين من التعلق الفاسد :التعلق بما يملكه الإنسان ويحصله بنفسه، والتعلق بمن يظن أنه يملكه أو ينصره من خارج نفسه .وكلاهما يسقط يوم القيامة؛ لأن الملك والحكم لله وحده، ولا يملك أحد أن يدفع عن غيره ما قضاه الله عليه.

وهنا تتجلى الصلة بين هذه الآية ومطلع السورة؛ فقد افتتحت السورة بإثبات أن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، ثم أقامت دلائل ربوبيته في السماوات والأرض والأنفس والآفاق، وانتهت في هذا المقطع إلى بيان عاقبة من أعرض عن آيات ذلك الرب، واتخذ من دونه أولياء .فالقضية ليست مجرد خلاف في فهم نص أو اختلاف في رأي، وإنما هي موقف من الربوبية والتوحيد ومصدر الهداية.

ثم ختمت الآية بقوله :﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .فبعد وصف العذاب في الآية السابقة بأنه مهين، وصفه هنا بأنه عظيم، ولكل وصف دلالته؛ فالإهانة تناسب استكبارهم واستهزاءهم، والعظمة تناسب عظم الجناية التي اقترفوها من الكفر والإعراض والشرك .وليس بين الوصفين تعارض، بل هما وصفان متكاملان لعقوبة واحدة من جهتين مختلفتين.

القرآن هدى، والكفر بآيات الله موجب للعذاب

قال الله تعالى :﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ .بعد أن وصف الله المكذبين بالإفك والإثم والاستكبار والاستهزاء، وبيّن سقوط ما يتعلقون به من أسباب وأولياء، أعاد الخطاب إلى حقيقة الوحي نفسه، ليضع القارئ أمام المقابلة الفاصلة بين هداية الكتاب وعاقبة من يكفر به .فليس القرآن كلامًا يمر بالأسماع ثم ينتهي أثره، وإنما هو هدى يبين الحق، ويكشف طريق النجاة، ويميز بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر.

والإشارة في قوله :﴿هَٰذَا هُدًى﴾ إلى القرآن وما تضمنه من آيات وبيان، أي هذا الكتاب الذي يتلى عليكم هداية إلى الحق، ودلالة على الصراط المستقيم .وهذا هو المعنى الذي قرره الطبري، إذ جعل الإشارة إلى القرآن المنزل على النبي ﷺ، وأنه بيان ودليل على الحق يهدي من اتبعه وعمل بما فيه.

واسم الإشارة ﴿هَـٰذَا﴾ يستحضر الكتاب المعروض في مقام التلاوة والبيان، كأنه حاضر بين أيدي المخاطبين، وقد سبق وصف آياته بأنها حق، ثم جاءت دلائل الكون مؤيدة لما يدعو إليه، ثم جاء هذا التقرير الموجز الحاسم :﴿هَـٰذَا هُدًى﴾.

ولم يقل :هذا كلام، أو هذا خبر، بل قال :﴿هُدًى﴾، ليبين وظيفة القرآن وأثره في حياة الإنسان؛ فهو ليس مجرد مادة معرفية يتلقاها المرء ثم يبقى على حاله، بل نور يهدي إلى الحق، وميزان يميز به الإنسان بين الهدى والضلال، ومنهج يرشده في اعتقاده وعبادته وسلوكه.

وتنكير ﴿هُدًى﴾ يفيد عظم شأن الهداية وشمول وجوهها، فالقرآن هداية في أصول الاعتقاد، وفي معرفة الله وأسمائه وصفاته، وفي بيان الحق والباطل، وفي توجيه الإنسان إلى ما يصلح به أمره في الدنيا والآخرة .ولا يعني ذلك أن كل تفصيل دنيوي يوجد فيه بنصه، وإنما أن هدايته تشمل الأصول والقواعد التي يستقيم بها النظر والعمل.

ثم انتقل السياق إلى المقابل فقال :﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ .وفي إضافة الرب إلى ضميرهم تذكير لهم بأن الآيات التي كفروا بها آيات ربهم الذي خلقهم ورباهم وأنعم عليهم، فلا يليق بهم أن يقابلوا دلائل ربوبيته بالجحود والإعراض .كما أن وصف الآيات بأنها آيات الرب يربط التكذيب بمقام العبودية؛ فالذي يرفض هداية ربه لا يرفض خبرًا مجردًا، بل يعرض عن الحق الذي أنزله خالقه رحمة به وإقامة للحجة عليه.

واختيار الفعل ﴿كَفَرُوا﴾ يدل على الجحود والستر، وهو أخص من مجرد عدم العلم؛ إذ يفيد موقفًا من الآيات يقوم على ردها وعدم الإيمان بها .وقد جاء التعبير ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ عامًا، فيتناول آيات القرآن التي يتلوها الرسول ﷺ، كما يتناول ما دل على صدقها من الآيات والحجج، بحسب سياق السورة الذي جمع بين الوحي والدلائل الكونية.

ثم جاء الوعيد بقوله :﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ .والرجز في الاستعمال القرآني يأتي بمعنى العذاب الشديد، وما يصيب المعذب من البلاء والعقوبة .وإيراد لفظ ﴿رِجْزٍ﴾ بعد ذكر ﴿عَذَابٌ﴾ يزيد معنى التهويل، ويجعل الوعيد متصلًا بشدة العقوبة وقسوتها.

وفي توجيه وصف ﴿أَلِيمٍ﴾ ذكر ابن عطية وجهين نحويين بحسب القراءة :فعلى قراءة حفص عن عاصم يكون الوصف للعذاب، وعلى قراءة آخرين يكون الوصف للرجز .والفرق بين الوجهين في تعلق الصفة لا في أصل الوعيد؛ فالمعنى في الحالين إثبات العذاب المؤلم، مع اختلاف جهة الوصف في التركيب.

والتعبير بقوله :﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ يفيد ثبوت الجزاء لهم واستحقاقهم إياه بسبب كفرهم، ثم جاء وصفه بأنه ﴿مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ ليكشف عن شدته .وهذا الختام يعيد القارئ إلى المقابلة التي بني عليها المقطع كله :القرآن هدى، ومن أعرض عنه واستكبر واستهزأ بآيات الله انتهى إلى العذاب.

ومن لطائف اتصال هذه الآية بما قبلها أن الآية السابقة قالت :﴿هَـٰذَا هُدًى﴾، ثم ذكرت عذاب من كفر بآيات ربه؛ فجمعت بين حقيقة الوحي وموقف الإنسان منه، ولم تجعل الهداية وصفًا منفصلًا عن مسؤولية المتلقي .فالكتاب هدى في ذاته، أما الانتفاع به فيتوقف على قبول الحق والإذعان له، ومن أعرض عنه بعد قيام الحجة فقد اختار لنفسه طريقًا غير طريق الهداية.

وهكذا يكتمل هذا المقطع بتقرير أصل عظيم من أصول الخطاب القرآني :أن وضوح الدليل لا يستلزم وقوع الهداية في كل نفس؛ لأن الإنسان قد يسمع ولا يعتبر، ويعلم ولا ينقاد، ثم يتجاوز ذلك إلى الاستهزاء والسخرية .ولهذا لم يكن فساد موقف المكذبين ناشئًا عن نقص في آيات الله، وإنما عن فساد في موقفهم منها، واستكبارهم عن الحق الذي دلت عليه.

المقطع الثالث :تسخير الكون للإنسان، ووجوب الشكر، والتوجيه إلى العفو والصبر على أذى المخالفين الآيات :من ١٢ إلى ١٤

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾. سورة الجاثية :الآيات ١٢-١٤ .(١)

في هذا المقطع يقول الله عز وجل :﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾

قال الله تعالى :﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٢.

يفتتح هذا المقطع بذكر نعمة من أعظم النعم التي تتصل بحياة الإنسان ومعاشه، وهي تسخير البحر، بعد أن عرضت الآيات السابقة دلائل القدرة في السماوات والأرض، ثم كشفت موقف المكذبين من تلك الدلائل .فكأن السياق ينتقل من إقامة الحجة بآيات الخلق إلى إقامة الحجة بما ينتفع به الإنسان من مخلوقات الله، ليريه أن الذي أقام الدليل على وحدانيته في الآفاق هو الذي هيأ له أسباب الحياة والرزق في هذا العالم.

وفي تقديم اسم الجلالة في قوله :﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ تقرير لأصل التوحيد، وربط للنعمة بالمنعم؛ فليس البحر مستقلًا بما فيه من المنافع، ولا جريان السفن فيه قائمًا بذاته، وإنما الله هو الذي خلقه وهيأه وأجرى فيه سننه، وجعل الإنسان قادرًا على الانتفاع به .وهذا التقديم يرد النعمة إلى مصدرها الحقيقي، حتى لا يقف الإنسان عند الوسيلة وينسى مسبب الأسباب.

والتسخير في أصل معناه تذليل الشيء وتهيئته للانتفاع به، وليس المراد أن البحر قد صار مملوكًا للإنسان يتصرف فيه بلا حدود، بل أن الله أجرى فيه من الخصائص والسنن ما جعله قابلًا للانتفاع، مع عظمته واتساعه وما فيه من قوى قد يعجز الإنسان عن مقاومتها .وفي ذلك تذكير بضعف الإنسان من جهة، وبسعة فضل الله عليه من جهة أخرى.

ثم بيّن الله وجهًا من وجوه هذا التسخير بقوله :﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾، والفُلْك اسم للسفن، ويستعمل بلفظ واحد للمفرد والجمع، والمراد هنا جنس السفن التي تحمل الناس وأمتعتهم وتجارتهم.

ولم يقل :لتجري السفن فيه فحسب، بل قال :﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ ليربط جريانها بالتدبير الإلهي، فحركة السفن وإن كانت تجري بأسباب محسوسة من الرياح والماء وما يتخذه الإنسان من وسائل الملاحة، فإن هذه الأسباب جميعًا داخلة في خلق الله وتقديره، لا تستقل بإيجاد آثارها ولا تخرج عن سلطانه.

وهنا تظهر دقة التعبير القرآني؛ إذ لا ينفي الأخذ بالأسباب، ولا يجعل الأسباب مستقلة عن مسببها، بل يضعها في موضعها الصحيح :يعمل الإنسان، ويصنع السفن، ويتعلم أحوال البحر، ويأخذ بأسباب السلامة، ثم يعلم أن تحقق النتائج مرتبط بإذن الله وتقديره.

ثم ينتقل السياق من المنفعة الحركية إلى المنفعة الاقتصادية والمعاشية في قوله :﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ .والابتغاء هو الطلب، والمراد طلب الرزق والمكاسب والمنافع التي تتهيأ للناس عن طريق البحر، من التجارة والسفر والصيد وسائر وجوه الانتفاع المشروعة.

وإضافة الفضل إلى الله في قوله :﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ذات دلالة عظيمة؛ فهي تربي الإنسان على ألا يرى ما يحصل عليه ثمرة لجهده وحده، وإن كان الجهد سببًا معتبرًا في تحصيله، بل يرد حصول الرزق إلى فضل الله الذي هيأ أسبابه وفتح أبوابه .فالإنسان يسعى ويكسب، ولكنه لا يستقل بخلق الرزق ولا يملك ضمان نتائجه.

ومن هنا يتصل المعنى بقوله :﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فالشكر هو الغاية التعبدية التي ينبغي أن تثمرها النعمة في نفس الإنسان .وليس المقصود مجرد الاعتراف بالنعمة أو الثناء باللسان، وإنما أن يعرف العبد المنعم، ويقر بفضله، ويستعمل ما أنعم به عليه في طاعته، فلا يجعل النعمة وسيلة إلى الغفلة أو البطر أو الاستكبار.

وتأمل كيف انتظم المعنى في ثلاث حلقات :تسخير البحر، ثم الانتفاع به في جريان السفن وابتغاء الرزق، ثم الشكر لله على ذلك كله .فالنعمة ليست غاية مستقلة، وإنما هي طريق إلى معرفة المنعم وعبادته.

وفي هذا دليل على أن الانتفاع بمنافع الدنيا لا ينافي حقيقة العبودية، بل قد يكون من وجوهها إذا اقترن بالنية الصالحة، وطلب الحلال، وأداء الحقوق، وشكر الله على ما يسر من الأسباب.

وقد ذكر الطبري عند تفسير الآية أن تسخير البحر يشمل جريان السفن لمعايش الناس وتصرفهم في البلاد لطلب فضل الله، وأن الشكر يقتضي عبادة الله وطاعته فيما أمر ونهى . وهذا المعنى يوافق انتظام الآية نفسها؛ إذ جمعت بين الانتفاع الدنيوي والغاية التعبدية، ولم تفصل أحدهما عن الآخر.(٢)

قوله :﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾

قال الله تعالى :﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٣.

بعد أن خصّ الله البحر بالذكر لما فيه من منافع ظاهرة للإنسان، وسّع دائرة الامتنان لتشمل ما في السماوات وما في الأرض، فكأن الآية الثانية تعميم لما سبق من النعمة، وإظهار لسعتها وشمولها.

والتعبير بقوله :﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ يربط هذه الآية بسابقتها، ويجعل البحر مثالًا من أمثلة التسخير العام، لا نعمة منفردة عن سائر النعم .فالشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الدواب والنبات والجبال والمياه وسائر المخلوقات، كلها داخلة في هذا النظام الذي هيأ الله منه للإنسان وجوهًا من الانتفاع.

وليس معنى ذلك أن كل ما في الوجود مسخر للإنسان على وجه الانتفاع المباشر، أو أن الإنسان يحيط بحكم جميع الموجودات ومنافعها، وإنما المعنى أن الله جعل في هذا العالم من وجوه التهيئة والتسخير ما تقوم به مصالح الإنسان وتنتظم به حياته، مع بقاء المخلوقات على ما أراده الله لها من الوظائف والحِكَم.

وقوله :﴿جَمِيعًا﴾ يفيد استغراق ما تناوله السياق من وجوه التسخير، ويمنع أن ينظر الإنسان إلى بعض النعم الظاهرة ويغفل عن غيرها؛ فالامتنان لا يقتصر على ما تقع عليه اليد أو

تدركه الحواس مباشرة، بل يمتد إلى نظام واسع من المخلوقات والأسباب التي تتساند في قيام الحياة.

ثم جاء قوله :﴿مِنْهُ﴾ ليقرر أن هذا التسخير كله من الله، خلقًا وتدبيرًا وإنعامًا .فلا شريك له في أصل الإيجاد، ولا مستقل عنه في تدبير هذا الملك، ولا يملك أحد أن يمن على الإنسان بنعمة استقلالًا عن فضل الله.

وقد فسر الطبري هذا الموضع بأن ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الدواب والشجر والجبال والجماد والسفن، قد سخره الله لمنافع الناس ومصالحهم، وأن قوله :﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يرد هذه النعم إلى إنعام الله وفضله، ويوجب إفراده بالشكر والعبادة.(٣)

ثم ختمت الآية بقوله :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فانتقلت من ذكر النعمة إلى بيان وظيفتها في بناء المعرفة والإيمان.

والتعبير بـ﴿لَآيَاتٍ﴾ يدل على أن هذه الموجودات ليست مجرد أدوات للانتفاع، بل هي أيضًا دلائل على قدرة خالقها ووحدانيته وحكمته .فالشيء الواحد قد يكون نعمة من جهة، ودليلًا من جهة أخرى؛ ينتفع به الإنسان في معاشه، ويتفكر فيه فيعرف عظمة خالقه.

ولم يقل :لقوم يعلمون، وإنما قال :﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن المقصود ليس مجرد مشاهدة الأشياء أو معرفة أسمائها وخصائصها، بل إعمال النظر في دلالاتها، وربط آثارها بمن أوجدها ودبرها.

والتفكر هنا عبور من ظاهر المخلوقات إلى ما تدل عليه من صفات الخالق؛ فمن تأمل انتظام هذا الكون، وتناسق أسبابه، وتنوع منافعه، أدرك أن هذه الموجودات ليست وليدة المصادفة العمياء، ولا مستقلة في وجودها وتدبيرها، بل هي آيات قائمة على قدرة الله وحكمته.

وفي المقابلة بين قوله في الآية السابقة :﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقوله هنا :﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تنبيه إلى تكامل وظيفتين في الإنسان :وظيفة القلب في شكر المنعم، ووظيفة العقل في النظر في آياته .فليس الانتفاع بالنعمة كافيًا وحده، كما أن مجرد التأمل العقلي لا يستوفي حق النعمة ما لم يثمر شكرًا وعبودية.

ومن هنا تتجلى الصلة بين هذا المقطع ومطلع السورة، فقد ابتدأت السورة بذكر آيات السماوات والأرض وخلق الإنسان واختلاف الليل والنهار ونزول الرزق وتصريف الرياح، ثم عادت هنا إلى تسخير ما في السماوات والأرض، لتؤكد أن الكون الذي أقيمت به الحجة على المكذبين هو نفسه الكون الذي ينتفع به الناس في حياتهم .فمن لم يهتد إلى خالقه من خلال دلائل الخلق والإنعام، فقد أعرض عن دلالة ظاهرة تتكرر أمامه في كل لحظة.

قوله :﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾

قال الله تعالى :﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٤.

ينتقل السياق هنا انتقالًا ظاهرًا من ذكر آيات التسخير والإنعام إلى توجيه المؤمنين في تعاملهم مع الذين أعرضوا عن الإيمان ولم يقدروا حق الله، وهو انتقال لا ينفصل عما سبقه؛ لأن السورة عرضت في الآيات الماضية حال المكذبين الذين يسمعون آيات الله ثم يستكبرون ويستهزئون بها، ثم أقامت أمامهم دلائل ربوبيته من خلال نعم الخلق والتسخير .فلما تقررت الحجة، جاء التوجيه للمؤمنين في كيفية التعامل مع أولئك المخالفين، فلا يحملهم أذاهم على تجاوز حدود العدل، ولا يدفعهم استهزاؤهم إلى ترك ما أمروا به من ضبط النفس والحلم.

والخطاب في قوله :﴿قُلْ﴾ موجه إلى النبي ﷺ، ليبلغ المؤمنين أمر الله في هذا الشأن .وفي تخصيص المؤمنين بالخطاب إظهار لما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان من التزام الهداية التي عرفوها، حتى في حال تعرضهم للأذى من مخالفيهم.

وقوله :﴿يَغْفِرُوا﴾ من المغفرة بمعنى الستر والتجاوز والعفو، والمراد أن يعفوا عن أذى أولئك وألا يقابلوه بمثله في ذلك المقام .وقد ذكر الطبري أن المراد أن يصفح المؤمنون عمن يؤذيهم من الذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه.(٤)

وفي التركيب النحوي دقة تستحق التنبيه؛ فقد جاء الفعل ﴿يَغْفِرُوا﴾ مجزومًا، وهو جواب الطلب في قوله :﴿قُلْ﴾، على معنى :قل لهم أن يغفروا، يغفروا .وقد أشار الطبري إلى أن الجزم جاء تشبيهًا بالجزاء والشرط، مع أنه ليس شرطًا حقيقيًا.(٤)

أما قوله :﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، فالمراد بهم الذين لا ينتظرون أيام الله، ولا يخافون وقائعه وعقابه، ولا يبالون بما ينزل بهم من بأسه .ولفظ الأيام في هذا الاستعمال يتسع لما يقع فيها من الوقائع والأحداث التي يظهر فيها حكم الله ونصره وعقابه، وليس المراد مجرد الأيام التي يتعاقب فيها الليل والنهار.

وقد نقل الطبري عن مجاهد في تفسير ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أنهم لا يبالون بنعم الله أو نقمه، وهو تفسير يبرز معنى عدم الاكتراث بما لله من إنعام أو عقوبة.(٥)

ويكشف هذا الوصف عن خلل في موقف الإنسان من ربه؛ إذ لا يستحضر عاقبة عمله، ولا يزن تصرفاته بميزان المسؤولية والجزاء، فيجرؤ على أذى أهل الإيمان والاستهزاء بدينهم، كأنه لا ينتظر حسابًا ولا يخشى عاقبة.

ثم يبين الله الحكمة من هذا التوجيه بقوله :﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي ليجزي الله أولئك الذين آذوا المؤمنين بما كانوا يعملون ويكتسبون من الإثم، فلا يضيع حق مظلوم، ولا يفلت ظالم من حسابه لمجرد أن المؤمن عفا عنه في الدنيا.

وهنا يظهر المعنى العميق للعفو في هذا الموضع؛ فليس العفو تنازلًا عن حق الله، ولا تقريرًا لصواب فعل المعتدي، ولا إسقاطًا لمسؤوليته، وإنما هو ضبط لاستجابة المؤمن، وترك لمقابلة الإساءة بمثلها حين يكون العفو هو المأمور به .أما الجزاء على الظلم فإلى الله، وهو الذي يتولى الحكم بين عباده بالعدل.

ومن ثم فإن الآية لا تجعل العفو ضعفًا، بل تجعله خلقًا صادرًا عن معرفة المؤمن بربه وثقته بعدله؛ فهو لا يحتاج إلى أن ينتقم لنفسه في كل موقف، ولا أن يحمل عبء إنزال العقوبة بالمعتدي، لأن الجزاء موكول إلى الله الذي لا يخفى عليه شيء.

مسألة تفسيرية :هل الآية منسوخة بآيات القتال؟

نقل الطبري عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم القول بأن الأمر بالعفو في هذه الآية كان قبل الأمر بقتال المشركين، وأن آيات القتال نسخته.(٥) وهذا النقل يثبت وجود اتجاه معتبر في التفسير المبكر إلى حمل الآية على مرحلة من مراحل الدعوة التي كان فيها المؤمنون مأمورين بالصبر على أذى المشركين.

غير أن إطلاق النسخ على الآية كلها يحتاج إلى تحرير، لأن العفو عن الإساءة ليس مناقضًا للقتال المشروع، كما أن مشروعية دفع العدوان لا تعني إلغاء فضيلة الصفح عند تحقق مصلحته .فقد يجتمع في الشريعة الأمر بالصبر في موضع، والإذن بدفع العدوان في موضع آخر، بحسب الأحوال والقدرة والمصلحة والحقوق المتعلقة بالواقعة.

ولهذا ينبغي التمييز بين أمرين :الأول، الحكم التاريخي المتعلق بمرحلة معينة من مراحل التعامل مع المشركين، والثاني، أصل خلق العفو والصفح الذي تدل عليه الآية .فلا يصح أن يقال إن كل عفو عن مخالف قد نُسخ، ولا أن تجعل الآية مانعًا من دفع العدوان أو إقامة العدل.

والذي يظهر من سياق الآية أن المقصود تربية المؤمنين على ألا يسترسلوا في مقابلة الإساءة بالإساءة، وأن يتركوا الجزاء إلى الله، مع بقاء أحكام العدل ودفع الظلم في مواضعها .أما تعيين حدود النسخ وتفاصيله فيحتاج إلى جمع النصوص المتعلقة بالمسألة والنظر في تواريخها وأحكامها، ولا يكفي فيه مجرد ورود قول بالنسخ في بعض الآثار.

وفي هذا التوجيه تربية عظيمة للنفس المؤمنة؛ فالمؤمن الذي عرف آيات ربه، وتفكر في نعمه، واستقر في قلبه الإيمان بعدله، لا ينبغي أن تتحكم فيه انفعالات الغضب حتى ينسى حدود الحق، ولا أن يحمله أذى الآخرين على التشبه بهم في البغي والاعتداء.

وهكذا تتكامل الآيات الثلاث :نعمة تسخر، وآيات تدل، ونفس مؤمنة تتربى على الشكر والتفكر والعفو .فالانتفاع بمخلوقات الله ينبغي أن يقود إلى شكره، والتفكر في آياته ينبغي أن يقود إلى معرفته، ومعرفة الله ينبغي أن تظهر آثارها في أخلاق عباده وسلوكهم.

المراجع

(١) مصحف المدينة النبوية، رواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سورة الجاثية، الآيات ١٢-١٤ .وتمت مقابلة النص القرآني مع العرض الإلكتروني للرسم العثماني في موقع قرآن حياة، قسم المصحف الرقمي .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، عند قوله :﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ .والنص متاح للمراجعة في موقع القرآن الكريم بجامعة الملك سعود .

(٣) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، عند قوله :﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ .وقد روجع النص الإلكتروني في موقع القرآن الكريم بجامعة الملك سعود، وفي المكتبة الإلكترونية لتفسير الطبري .

(٤) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، عند قوله :﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾، في بيان معنى العفو وتوجيه الفعل من جهة الإعراب .والنص متاح للمراجعة في موقع القرآن الكريم بجامعة الملك سعود، وموقع إسلام ويب .

(٥) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية الرابعة عشرة، في الآثار الواردة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة في معنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، والقول بنسخ الأمر بالعفو .وقد روجعت الروايات والنص التفسيري في المكتبة الإلكترونية لتفسير الطبري.

المقطع الرابع :المسؤولية الفردية والجزاء، ثم تاريخ بني إسرائيل وموقفهم من العلم والاختلاف

الآيات :١٥-١٧

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾. سورة الجاثية :الآيات ١٥-١٧ .

تفسير الآيات وتحليلها

أولًا :المسؤولية الفردية وارتباط العمل بالجزاء

قال الله تعالى :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٥ .تقرر الآية أصلًا عظيمًا من أصول العدل الإلهي، وهو أن الإنسان لا يحمل تبعة عمل غيره، ولا يعود نفع طاعته إلى سواه، وإنما يجني ثمرة عمله، خيرًا كان أو شرًّا؛ فالعمل الصالح يعود نفعه على صاحبه، والإساءة لا يتجاوز وبالها إلى غيره، ثم إن الجميع صائرون إلى الله، حيث يظهر أثر الأعمال وتتحقق المجازاة على مقتضاها.

وجاءت الآية متصلة بما قبلها اتصالًا ظاهرًا؛ فقد أمر الله المؤمنين في الآية السابقة بالعفو عمن لا يرجون أيام الله، وما يقتضيه ذلك من ضبط النفس وترك المقابلة بالمثل، ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن العفو لا يعني ضياع الحقوق عند الله، ولا أن المسيء يفلت من تبعة إساءته، بل لكل إنسان عمله، ولكل عامل جزاؤه .فالمؤمن مأمور أن يضبط موقفه وفق هداية الله، والمسيء مسؤول عن إساءته، والله هو الذي يتولى الفصل بين عباده.

وهذا الاتصال يكشف عن دقة التوازن في الخطاب القرآني؛ إذ لا يجعل العفو تنازلًا عن حقيقة العدل، ولا يجعل استحضار العدل مبررًا للانتقام والتجاوز .فالمؤمن يعفو امتثالًا لأمر الله، لا غفلة عن حقيقة الحساب، ويترك الفصل النهائي لمن لا تخفى عليه خافية.

أما قوله :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، فقد جاء التعبير بالعمل الصالح نكرة في سياق الشرط، ليتناول جنس العمل الصالح، فلا ينحصر في نوع معين من الطاعات .والصلاح هنا وصف للعمل

باعتبار موافقته لما شرعه الله، وصحة قصده ووجهته، فلا يكفي مجرد الفعل في صورته الظاهرة حتى يكون صالحًا عند الله.

ثم قال :﴿فَلِنَفْسِهِ﴾، فدخلت الفاء في جواب الشرط، وجاء اللام دالة على اختصاص النفس بمنفعة العمل وثمرته .ولم يقل :فلها، بل أعاد لفظ النفس، وفي ذلك إظهار لحقيقة أن الإنسان هو المستفيد الأول من صلاحه، وأن طاعته لا تزيد في ملك الله شيئًا، كما أن معصيته لا تنقص من سلطانه سبحانه شيئًا.

وفي المقابل قال :﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فعدّى أثر الإساءة إلى النفس بحرف الاستعلاء، كأن الإساءة تحمل تبعتها على صاحبها وتعود عليه بثقلها .وهذا من دقة المقابلة القرآنية؛ فالفاء في الموضعين تربط العمل بعاقبته مباشرة، والاختلاف بين اللام وعلى يبرز اختلاف جهة الأثر :منفعة تعود إلى النفس، وتبعة تقع عليها.

وليس المراد أن كل عمل صالح تظهر ثمرته كاملة في الدنيا، أو أن كل إساءة ينال صاحبها جزاءها الدنيوي فورًا، وإنما الآية تقرر أصل المسؤولية الذي يستوفي مقتضاه عند الحساب، وقد يرى الإنسان بعض آثاره في الدنيا، ويُدَّخر تمام الجزاء للآخرة.

وهذا المعنى تؤكده آيات أخرى، منها قول الله تعالى :﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .سورة الإسراء :الآية ١٥ .فالمعنى واحد في تقرير استقلال المسؤولية، وإن اختلف السياق الذي وردت فيه الآيتان.

ثم ينتقل السياق إلى قوله :﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وهذا الانتقال من بيان أثر العمل في النفس إلى بيان المرجع الذي تنتهي إليه أعمال الناس، يضع المسؤولية الفردية في إطارها الأخروي الكامل.

وإيثار لفظ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي، فينتقل بالسامع من العمل في دار التكليف إلى الرجوع بعد انقضاء الحياة الدنيا .أما البناء للمجهول في ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فلا يقتضي جهالة الفاعل، بل يبرز حتمية المصير، والرجوع إلى الله معلوم من قوله :﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

وفي إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين تذكير لهم بربوبيته التي تقتضي الخلق والتدبير والتربية والحكم، فلا يكون الرجوع إليه رجوعًا إلى جهة مجهولة، بل إلى ربهم الذي خلقهم ورعاهم، وهو الذي يحاسبهم بالحق والعدل.

والخطاب في قوله :﴿رَبِّكُمْ﴾ يعم المخاطبين، بعد أن ابتدأت الآية بلفظ الشرط العام :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، وفي هذا الانتقال إشعار بأن قاعدة المسؤولية لا تختص بأمة دون أمة، ولا بجماعة دون أخرى، بل هي سنة عامة في الخلق.

وبهذا تختم الآية ما سبقها من توجيه المؤمنين إلى العفو، فتجمع بين تهذيب موقف الإنسان من الناس، وتذكيره بموقفه من ربه؛ فلا يظلم في معاملته، ولا يغتر بعمله، ولا ينسى أن مرجعه إلى الله.

ثانيًا :ما أنعم الله به على بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة

قال الله تعالى :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٦ .بعد أن قررت الآية السابقة أن كل إنسان مسؤول عن عمله، وأن المرجع إلى الله للحساب والجزاء، ينتقل السياق إلى عرض تجربة بني إسرائيل، وما خصهم الله به من نعم عظيمة في تاريخ الوحي؛ ليبين أن كثرة النعم، وقيام الحجة، ونزول الكتاب، لا تمنع وقوع الاختلاف والانحراف إذا دخل الهوى والبغي في تلقي الحق.

وافتتحت الآية بقوله :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾، واللام و"قد" تفيدان توكيد الخبر وتحقيقه، فكأن السياق يقرر حقيقة تاريخية ثابتة لا مجال لإنكارها :أن الله أنعم على بني إسرائيل بنعم دينية ودنيوية متتابعة، وأن ما وقع منهم بعد ذلك لا يمكن تفسيره بغياب الهداية أو انعدام البيان.

والإيتاء في قوله :﴿آتَيْنَا﴾ يدل على العطاء، لكنه هنا عطاء يتجاوز مجرد التمكين المادي؛ إذ بدأ بذكر الكتاب، ثم الحكم، ثم النبوة، فقدم أعظم وجوه النعمة الدينية، وأتبعها بما يتعلق بالرزق والفضل.

أما ﴿الْكِتَابَ﴾ فالمراد به أصلًا التوراة، وما أنزل الله إليهم من كتب الوحي، وقد عبّر بعض المفسرين عن ذلك بالتوراة والإنجيل باعتبار مجموع ما أوتيه بنو إسرائيل من الوحي في

تاريخهم .والأظهر أن لفظ الكتاب في الآية يتناول الكتاب المنزل الذي قامت به حجتهم، وأصل ذلك التوراة، ولا يلزم من إطلاقه هنا حصر جميع العطاء في كتاب واحد، ولا حمله على جميع الكتب دون قرينة.

وأما ﴿الْحُكْمَ﴾ فقد فسره أهل التفسير بالعلم والفهم والفقه في الكتاب، وقيل :القضاء والفصل بين الناس .وهذان المعنيان متقاربان من جهة أن الحكم يقتضي معرفة الحق والقدرة على إدراكه وإنفاذه؛ فالعلم يهدي إلى وجه الصواب، والحكم يضع الأمور في مواضعها . والذي يظهر أن اللفظ أوسع من أن يحصر في أحدهما، إذ يتناول ما أوتوه من فهم الدين والقدرة على الحكم به.

ثم قال :﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾، وهي من أعظم ما خصهم الله به، فقد جعل فيهم أنبياء متتابعين، يحملون رسالته، ويجددون في الأمة أمر الدين، ويذكرونها بعهده وشرائعه .وليس ذكر النبوة بعد الكتاب والحكم تكرارًا لهما؛ فالكتاب أصل الوحي المنزل، والحكم ما يتصل بفهمه والعمل بمقتضاه، والنبوة مقام الاصطفاء والتبليغ والهداية.

ثم انتقل السياق من النعم الدينية إلى النعم الدنيوية فقال :﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، والرزق هنا يشمل ما أباحه الله لهم من المطاعم والمنافع الحسنة، ويدخل فيه ما خصهم به من المن والسلوى، كما يدخل فيه غيرهما من وجوه الرزق الطيب .وقد أشار الطبري إلى المن والسلوى عند تفسير هذه الآية، وهو من أبرز ما يتصل بتاريخ بني إسرائيل في القرآن.

وفي اختيار لفظ ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ دلالة على أن النعمة ليست مجرد حصول الطعام أو المال، بل حصول الرزق الحسن الذي أباحه الله لهم، فاجتمع لهم عطاء الهداية وعطاء المعيشة.

ثم ختم تعداد النعم بقوله :﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وهذا التفضيل من المواضع التي تحتاج إلى تحرير؛ إذ قد يتوهم من إطلاق اللفظ أنه تفضيل لبني إسرائيل على جميع الأمم في كل زمان، وهذا ليس هو المراد الذي يجتمع مع سائر النصوص القرآنية.

والأقرب في ضوء سياق الامتنان وتاريخ الرسالات أن المراد تفضيلهم ، بما خصهم الله به من الكتاب والنبوة والرزق والآيات، لا أنهم أفضل من جميع الأمم على الإطلاق إلى يوم القيامة.

ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في خطاب بني إسرائيل :﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .سورة البقرة :الآية ٤٧ .وقد حمل جماعة من المفسرين هذا التفضيل ، وهو الذي ينسجم مع اختلاف أحوال الأمم وتعاقب الرسالات.

وهنا تظهر دقة الانتقال إلى الآية التالية؛ فإن ذكر النعم العظيمة ليس غاية مستقلة في السياق، وإنما هو تمهيد للكشف عن موقف بني إسرائيل من تلك النعم، وكيف تحول العلم والبيان، عند طائفة منهم، إلى ميدان اختلاف وبغي.

فالمقصود ليس مجرد سرد تاريخ أمة سابقة، وإنما إقامة الحجة من واقعها :فقد أوتيت من أسباب الهداية ما لم يؤت لكثير من الأمم، ومع ذلك لم يكن حصول العلم مانعًا من وقوع النزاع حين فسدت المقاصد.

ثالثًا :الاختلاف بعد قيام العلم وفساد المقصد بالبغي

قال الله تعالى :﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٧ .

تكشف هذه الآية عن موضع الخلل الذي أصاب بني إسرائيل بعد ما سبق من ذكر نعم الله عليهم؛ فلم يكن منشأ اختلافهم مجرد فقدان الدليل، ولا عدم وصول البيان، وإنما وقع اختلافهم بعد قيام العلم وظهور الحجة، وكان البغي بين طوائفهم من دوافع ذلك.

وقوله :﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ امتداد لذكر الإيتاء في الآية السابقة؛ فكما أوتوا الكتاب والحكم والنبوة، أوتوا كذلك البينات التي توضح لهم أمر دينهم وتفصل لهم وجوه الحق . والبينات جمع بينة، وهي الدلالة الواضحة التي تكشف الحق وتزيل الاشتباه عنه بقدر ما تقوم به الحجة.

وأما قوله :﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ فيحتمل أن يراد به أمر الدين وما يتصل بشرائعه وأحكامه، وما أنزل الله فيه من هداية وتفصيل، وهو المعنى الأوسع الذي يتناسب مع ذكر الكتاب والحكم والنبوة .وقد ذكر بعض المفسرين أن من هذه البينات ما يتعلق ببعثة النبي محمد ﷺ وصفته وأمر رسالته .وهذا داخل في بعض وجوه التفسير المنقولة، لكنه لا يستوعب وحده عموم اللفظ.

والأقرب أن الآية تتحدث عن وضوح ما جاءهم من أمر الدين والشرع، وما قامت به الحجة عليهم، ويدخل في ذلك ما كان في كتبهم من البشارات والدلالات المتعلقة بالرسالة الخاتمة، دون قصر الآية على هذا الوجه وحده.

ثم جاء التعبير الذي يكشف حقيقة الانحراف :﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ . فالنفي والاستثناء يفيدان قصر وقوع الاختلاف المذموم المذكور هنا على ما بعد مجيء العلم، وليس المراد نفي كل اختلاف وقع بينهم قبل ذلك في كل شأن؛ وإنما المقصود بيان أن الاختلاف الذي يتحدث عنه السياق نشأ بعد وضوح الحق وقيام الحجة.

وفي هذا تعريض شديد بمن يجعل الجهل عذرًا دائمًا لكل خلاف، فالقرآن يقرر أن الإنسان قد يعرف الحق، ثم يخالفه، لا لقصور في الدليل، وإنما لفساد في الإرادة والقصد.

وجاء قوله :﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ ليبين أن العلم قد يبلغ بالإنسان موضعًا تقوم فيه عليه الحجة، ولكنه لا يضمن وحده استقامته ما لم يصحبه إخلاص وقبول للحق .فالمشكلة ليست دائمًا في نقص المعرفة، بل قد تكون في أن النفس لا تريد أن تخضع لما عرفته.

ثم كشف النص عن الدافع الباطن فقال :﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، والبغي هو مجاوزة الحد وطلب الاستعلاء والتعدي على الحقوق، ويدخل فيه هنا الحسد والتنافس على الرئاسة والسلطان، ورفض الحق حين يخالف المصالح والأهواء.

وقد فسر الطبري البغي في هذا الموضع بطلب الرياسات وترك بيان الله في تنزيله، وهو تفسير يبرز الجانب الإرادي والاجتماعي في نشأة الاختلاف .وليس معنى ذلك أن كل اختلاف بين بني إسرائيل كان من هذا الباب، وإنما الآية تتحدث عن الاختلاف المذموم الذي وقع بعد العلم بسبب البغي.

وهنا ينبغي التمييز بين اختلاف الاجتهاد الذي قد يقع مع إرادة الحق واتباع الدليل، وبين الاختلاف الذي ينشأ عن البغي مع العلم .فليس كل اختلاف مذمومًا، ولا كل تعدد في الفهم دليلًا على فساد القصد؛ وإنما المذموم أن يتحول العلم إلى أداة للخصومة، وأن يعرف الإنسان وجه الحق ثم يدفعه حفاظًا على مكانته أو مصلحته.

وفي قوله :﴿بَيْنَهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذا البغي لم يكن مجرد انحراف فردي معزول، بل وقع في علاقاتهم وتنازعهم، فصار الخلاف بابًا للتدافع والتفرق، بعدما كان العلم الذي أوتوه سبيلًا إلى الاجتماع على الحق.

ثم انتقل السياق من كشف الدافع إلى تقرير الحكم الإلهي فقال :﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .وهذا انتقال من وصف النزاع في الدنيا إلى حسمه في الآخرة، حيث لا تبقى دعاوى متعارضة بلا فصل، ولا يستمر البغي دون حساب.

وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ في ﴿رَبَّكَ﴾ تتضمن تثبيتًا له وتطمينًا؛ فإن ما وقع بين أهل الكتاب من اختلاف وبغي ليس مما يخرج عن علم الله وحكمه، ولا يلزم الرسول ﷺ أن يفصل في كل ما تنازعوا فيه من تاريخهم، فالله هو الذي يتولى القضاء النهائي بينهم.

والفعل ﴿يَقْضِي﴾ يدل على الفصل والحكم، وهو هنا ليس مجرد إصدار حكم نظري، بل قضاء يميز به الله المحق من المبطل، ويظهر به حقيقة ما تنازعوا فيه، ويجازي كل فريق بما يستحق.

أما قوله :﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فقد أعاد وصف الاختلاف في خاتمة الآية، ليكون ختامها متصلًا بموضوعها من أولها، ويؤكد أن النزاع الذي عجزوا عن حسمه بالعلم والإنصاف لا يضيع عند الله، بل مرده إليه.

وفي هذا الختام تربية للمؤمنين على ألا يجعلوا اختلاف الناس سببًا للاضطراب أو اليأس من ظهور الحق؛ فالواجب عليهم طلب الحق بالعلم والعدل، وترك البغي والهوى، مع اليقين بأن الفصل النهائي لله وحده.

ومن دلالات الآية أيضًا أن العلم مسؤولية، وليس مجرد منزلة يتفاخر بها الإنسان؛ فمن أوتي علمًا ثم اتخذه وسيلة للاستعلاء أو تحصيل المصالح أو إقصاء المخالف بالباطل، فقد انحرف عن الغاية التي أنزل العلم من أجلها.

وهكذا ينتظم المقطع في بناء متدرج :قرر أولًا أن كل إنسان مسؤول عن عمله، ثم عرض نموذج أمة أوتيت الكتاب والحكم والنبوة والرزق، ثم كشف أن هذه النعم لم تمنع الاختلاف

حين دخل البغي في النفوس، وختم بتقرير أن الحكم الفصل بين المختلفين مرده إلى الله يوم القيامة.

وهذا التدرج يمهد لما يأتي بعده في السورة، حيث ينتقل الخطاب إلى بيان اختصاص الرسول ﷺ بالشريعة التي أنزلها الله، والأمر باتباعها وعدم اتباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فكأن تجربة بني إسرائيل تقدم شاهدًا تاريخيًا على خطورة أن يتحول الاختلاف بعد قيام العلم إلى اتباع للهوى، فيأتي الأمر للنبي ﷺ باتباع شريعة الله ليضع الحد الفاصل بين الوحي والهوى، وبين العلم والبغي.

المراجع

(١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية الخامسة عشرة، عند قوله :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ . النص الإلكتروني متاح في المكتبة الإلكترونية للتفاسير، موقع قرآن بيديا .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية السادسة عشرة، عند قوله :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾، في تفسير الكتاب والحكم والنبوة والطيبات والتفضيل .

(٣) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية السابعة عشرة، عند قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، في تفسير البينات والاختلاف بعد العلم والبغي وطلب الرياسات .

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيات الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة، في اتصال المقطع بسياق السورة، والتمهيد للانتقال إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾. النص الإلكتروني .

(٥) محمد بن أحمد القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآيات الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة، في تفسير المسؤولية الفردية والكتاب والحكم والنبوة والاختلاف. النص الإلكتروني .

(٦) أبو المظفر السمعاني، *تفسير القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآيات الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة، في بيان معاني المسؤولية الفردية، والحكم والنبوة، والرزق من الطيبات، والتفضيل على عالمي الزمان. النص الإلكتروني .

(٧) مصحف المدينة النبوية، رواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سورة الجاثية، الآيات الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة. وتمت مقابلة النص مع العرض الإلكتروني للنص القرآني.

المقطع الخامس :اختصاص الرسول ﷺ بالشريعة الإلهية، والتحذير من اتباع الأهواء والظالمين، وبيان القرآن بوصفه بصائر وهدى ورحمة الآيات :١٨-٢٠

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾. سورة الجاثية :الآيات ١٨-٢٠ .(١)

تفسير الآيات وتحليلها

أولًا :انتقال الرسالة من تاريخ الاختلاف إلى استقامة الشريعة

يقول الله تعالى :﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . سورة الجاثية :الآية ١٨.

تأتي هذه الآية متصلة بما سبقها اتصالًا وثيقًا؛ فقد عرضت الآيات السابقة ما أوتيه بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة والبينات، ثم كشفت أن اختلافهم لم يقع إلا بعد مجيء العلم، وأن البغي كان من دوافعه، وأن الفصل بينهم موكول إلى الله يوم القيامة .وبعد هذا العرض التاريخي ينتقل الخطاب إلى النبي ﷺ، فيبين أن الله جعله على شريعة واضحة من أمره، وأمره باتباعها، ونهاه عن الاستجابة لأهواء الذين لا يعلمون.

وهذا الانتقال ليس مجرد انتقال من أمة إلى أمة، بل هو انتقال من بيان تجربة الاختلاف بعد قيام الحجة إلى تقرير المنهج الذي ينبغي أن تستقيم عليه الرسالة الخاتمة؛ فالعلم الذي لم يصحبه الانقياد قد يصبح وسيلة للخصومة والبغي، أما الشريعة التي أنزلها الله فهي الميزان الذي تُرد إليه الأهواء، ولا يجوز أن تُرد هي إلى رغبات الناس ومطالبهم.

وافتتحت الآية بقوله :﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾، ولفظ "ثم" يفيد الترتيب مع التراخي، وهو هنا مناسب للانتقال من ذكر حال بني إسرائيل وما أوتوه من النعم وما وقع بينهم من الاختلاف، إلى بيان ما خص الله به نبيه محمدًا ﷺ من الشريعة .وليس المقصود مجرد الترتيب الزمني بين نزول الشرائع، وإنما إبراز موقع الرسالة المحمدية في سياق الحديث عن الأمم السابقة وما وقع فيها من اختلاف.

أما قوله :﴿جَعَلْنَاكَ﴾ فيدل على أن هذا المقام منحة إلهية واختيار رباني، فالنبي ﷺ لم يضع الشريعة من عند نفسه، ولم ينشئها استجابة لظروف قومه أو أهوائهم، وإنما جعله الله على شريعة من أمره، وتولى هدايته إليها وتكليفه باتباعها.

وفي تخصيص النبي ﷺ بالخطاب في قوله :﴿جَعَلْنَاكَ﴾ تشريف له، وإظهار لمصدر التشريع الذي جاء به، وفي الوقت نفسه تقرير لحقيقة أن الرسول نفسه مأمور بالاتباع، فكيف بمن دونه من الناس؟

ثم قال :﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، والشريعة في أصل اللغة مورد الماء الذي يرد إليه الناس للاستقاء، ثم استعملت في الطريق الواضح الذي شرعه الله لعباده من الدين والأحكام .ومن هذا المعنى نشأت دلالتها الشرعية؛ لأنها الطريق الذي به حياة القلوب وصلاح أحوال العباد.

ولم يأت التعبير بـ"في شريعة"، وإنما جاء بـ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، وفي ذلك تصوير للاستقرار والتمكن من المنهج الواضح، فكأن النبي ﷺ قائم على طريق بيّن، مستعلٍ عليه من جهة التمكن والاتباع، لا متردد بين مناهج متعارضة ولا تابعًا لطرائق متقلبة.

وأما قوله :﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ فالمراد به أمر الدين الذي شرعه الله، وما يتصل به من أصول الاعتقاد والعبادة والأحكام والهداية .وقد فسر الطبري الشريعة بالطريقة والسنة والمنهاج من أمر الله الذي أمر به رسله من قبل، وهو تفسير يجمع بين أصل الطريق ومعنى الدين المنزل .(٢)

وهذا المعنى يبين أن الرسالة المحمدية ليست منفصلة عن أصل الرسالات السابقة في دعوتها إلى توحيد الله وعبادته والاستقامة على أمره، وإن كانت شريعتها مشتملة على أحكام وخصائص ناسخة أو مغيرة لما سبقها بحسب ما اقتضته حكمة الله في التشريع.

فالأصل الجامع بين الأنبياء واحد، وهو إخلاص العبادة لله، وتصديق رسله، والاستقامة على أمره، أما تفاصيل الشرائع فقد يقع بينها اختلاف بحسب الأمم والأزمنة، كما قال الله تعالى :﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ .سورة المائدة :الآية ٤٨.

وهذا يرفع توهم التعارض بين وحدة الدين في أصله وتعدد الشرائع في بعض أحكامها؛ فالوحدة قائمة في التوحيد وأصول الهداية، والتنوع واقع في تفاصيل التشريع وفق الحكمة الإلهية.

ثم جاء الأمر المباشر :﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، والفاء تفيد تفريع الأمر على ما سبق؛ فبما أن الله جعلك على شريعة من أمره، فالواجب أن تتبعها وتستقيم عليها، فلا تجعل مطالب المخالفين أو ضغوطهم حاكمة على ما أنزل الله.

والاتباع هنا ليس مجرد موافقة ظاهرية لبعض الأحكام، بل هو لزوم الشريعة في الاعتقاد والعمل والحكم والدعوة، وتقديم أمر الله على كل ما يعارضه.

ثم جاء النهي المقابل :﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فجمع بين إثبات الطريق الصحيح والنهي عن الطريق المضاد له .ولم يقل :ولا تتبع أقوال الذين لا يعلمون، وإنما قال :﴿أَهْوَاءَ﴾، لأن القول قد يكون مبنيًّا على علم أو اجتهاد، أما الهوى فهو ميل النفس إلى ما تشتهيه دون انضباط بالحق، وقد يحمل صاحبه على تحريف الدليل أو ردّه إذا خالف مراده.

والهوى في ذاته ليس مجرد كل رغبة بشرية، وإنما المذموم منه ما خالف هدى الله، وصرف الإنسان عن الحق، ولذلك قرن القرآن بين اتباع الهوى والضلال في مواضع كثيرة.

وفي قوله :﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصف يكشف عن منشأ موقفهم؛ فهم لا يملكون العلم الذي يميز الحق من الباطل، أو لا ينتفعون بما لديهم من معرفة انتفاعًا يحملهم على اتباع الحق .وقد يكون المراد بهم مشركي العرب الذين دعوا النبي ﷺ إلى الرجوع إلى دين آبائهم، ويدخل في عموم اللفظ كل من يدعو إلى مخالفة شريعة الله استجابة للهوى والجهل.

وقد نقل السمعاني في تفسير الآية أن المشركين كانوا يقولون للنبي ﷺ أن يرجع إلى دين آبائه، فجاء النهي عن اتباع أهوائهم .وهذا يوضح صورة من صور الضغط الذي واجهته الرسالة، دون أن يلزم منه حصر الآية في ذلك الموقف وحده .(٣)

وهنا تتجلى دلالة الآية في سياق المقطع :فقد كان اختلاف بني إسرائيل بعد العلم ناشئًا عن البغي، فجاء الأمر للنبي ﷺ باتباع الشريعة والنهي عن اتباع الأهواء؛ ليقرر أن معيار

الاستقامة ليس الانتماء إلى جماعة أو المحافظة على موروث اجتماعي، وإنما الانقياد لما أنزل الله.

وهذه قاعدة تتجاوز المخاطب الأول إلى الأمة كلها، فالأمر للنبي ﷺ باتباع الشريعة يتضمن أن أمته مأمورة بلزومها، وأنه لا يجوز تقديم هوى الجماعة أو مصلحة أصحاب النفوذ أو ضغط المخالفين على حكم الله.

ثانيًا :سقوط ولاية الظالمين وثبوت ولاية الله للمتقين

قال الله تعالى :﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٩.

تأتي هذه الآية تعليلًا للنهي السابق عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وتكشف عن حقيقة ينبغي أن يستحضرها الداعي إلى الله عند مواجهة الضغوط :أن الذين يدعونه إلى مخالفة أمر الله لن يستطيعوا أن يدفعوا عنه حكم الله، ولن تنفعه موالاتهم إذا خالف الحق من أجل إرضائهم.

فقوله :﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يقرر انعدام قدرتهم على دفع ما يقدره الله أو يمنعه، ولفظ ﴿يُغْنُوا﴾ من الغناء، وهو الكفاية والدفع والاستقلال بتحصيل ما يحتاج إليه الإنسان، والمعنى أنهم لن يكفوا عنك شيئًا من أمر الله، ولن يدفعوا عنك عقابه إن خالفت أمره إرضاء لهم.

والتعبير بقوله :﴿لَنْ يُغْنُوا﴾ يفيد تأكيد انتفاء هذه القدرة في المستقبل، وفيه قطع للتعلق بوعدهم أو نصرتهم؛ فمهما بلغوا من القوة أو كثرتهم أو مكانتهم، فإنهم لا يملكون من أمر الله شيئًا.

أما قوله :﴿عَنْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ فيفيد معنى الدفع والحماية من حكم الله، وليس المراد أن الله سبحانه جهة يمكن أن يُستعان بغيره لدفع قضائه عنها، بل المقصود أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عنك شيئًا مما يقضي الله به، أو يحمونك من عقابه إن خالفت أمره.

وهذا المعنى يعيد إلى الذهن ما سبق في المقطع الرابع من تقرير المسؤولية الفردية، حيث قال الله تعالى :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ .سورة الجاثية :الآية ١٥ .فليس

للإنسان أن يجعل موالاة الآخرين أو رضاهم وسيلة للنجاة من تبعة عمله، وإنما النجاة في الاستقامة على أمر الله.

ثم انتقل السياق إلى قاعدة اجتماعية وأخلاقية في قوله :﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

والولاية هنا تتناول النصرة والتناصر والتعاون على ما هم عليه من الظلم، فالمتشابهون في البغي والعدوان تتقارب مصالحهم، ويشد بعضهم أزر بعض، ويجتمعون على ما يحقق أهواءهم، ولو كان في ذلك إبطال الحق وإيذاء أهله.

ولم يقل :وإن الكافرين بعضهم أولياء بعض، مع أن الكفر داخل في الظلم، وإنما اختير وصف ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لما فيه من إبراز العلة التي تجمعهم، وهي تجاوز الحق ووضع الولاء في غير موضعه.

والظلم هنا يشمل ظلم النفس بالشرك، وظلم الحق بالإعراض عنه، وظلم الآخرين بالعدوان والبغي .ولذلك لا ينبغي قصره على صورة واحدة من صور الظلم، وإن كان سياق السورة يبرز ظلم المشركين وموقفهم من الرسالة.

وفي قوله :﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تصوير لتماسك أهل الظلم فيما بينهم؛ إذ تقوم الموالاة بينهم على التشابه في الموقف والمصلحة، لا على الارتباط بالحق .وقد تتبدل صور هذا التحالف وتتغير أسبابه، لكن يجمعه أنه لا يقوم على التقوى والعدل.

ثم جاءت المقابلة الحاسمة :﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

فبعد أن ذكر ولاية الظالمين بعضهم لبعض، أثبت ولاية الله للمتقين، لتظهر المفارقة بين فريقين :فريق يتناصر على الظلم، وفريق يتولى الله أهلَه بالنصرة والحفظ والتأييد والهداية.

والولي في أصل اللغة هو القريب الذي يلي غيره، ومنه جاءت معاني النصرة والتدبير والحفظ . وولاية الله للمتقين تتضمن رعايته لهم، وتوفيقهم للحق، ونصرته لهم، وإعانتهم على الاستقامة، بحسب ما تقتضيه حكمته.

ولم يقل :والله ولي المؤمنين، وإنما قال :﴿الْمُتَّقِينَ﴾، لأن التقوى هي الوصف الذي يناسب المقام؛ فالمؤمن الذي يصدق إيمانه بطاعة الله واجتناب معصيته هو الذي يدخل في هذا الوعد دخولًا ظاهرًا.

وهذا لا يعني أن المتقي لا يبتلى، أو أنه لا يصيبه أذى من أهل الظلم، بل معناه أن ولاية الله له لا تنقطع بالابتلاء، وأن العاقبة الحقيقية والنصرة التامة ليست لمن يملك أسباب القوة الظاهرة، وإنما لمن كان الله وليه.

ويظهر من نظم الآية أن المقابلة بين الولايتين مقصودة في بناء المعنى؛ فالظالمون يتناصرون فيما بينهم، لكن هذه النصرة لا تغني عنهم من الله شيئًا، أما المتقون فوليهم الله، فلا يضرهم أن يقل عدد أنصارهم إذا استقاموا على الحق.

وهذه الدلالة تعمق ما سبق من النهي عن اتباع الأهواء؛ لأن الإنسان قد يضعف أمام ضغط الجماعة أو يخشى فقدان مكانته بين أصحاب النفوذ، فجاءت الآية لتعيد ترتيب مصادر الأمان :لا تطلب النجاة بمخالفة أمر الله، ولا تستبدل ولاية الله بموالاة أهل الظلم.

وقد أشار الطبري إلى أن معنى الولاية في هذا الموضع يرجع إلى نصرة الظالمين بعضهم لبعض، في مقابل ولاية الله للمتقين، وهو ما ينسجم مع المقابلة التي انتظم بها ختام الآية(٤) .

ثالثًا :القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة للموقنين

قال الله تعالى :﴿هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٠.

بعد أن قرر السياق وجوب اتباع الشريعة، وحذر من اتباع الأهواء، وكشف عن حقيقة ولاية الظالمين وولاية الله للمتقين، جاء هذا البيان ليكشف عن حقيقة الوحي الذي يحمل هذه الهداية، ويبين منزلته وأثره في حياة الناس.

فقوله :﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن المنزل، وما اشتمل عليه من آيات الهداية والبيان والأحكام، وهو المشار إليه في السياق القريب بما جاء من أمر الشريعة واتباعها.

والإشارة باسم الإشارة ﴿هَـٰذَا﴾ تستحضر الكتاب حاضرًا في مقام الخطاب، كأن السامع يواجه هذا الوحي الذي يتضمن البيان الذي يحتاج إليه في معرفة الحق والباطل، والطريق الذي ينبغي أن يسلكه.

ثم وصفه بقوله :﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾، والبصائر جمع بصيرة، وهي ما به يحصل إدراك الحق وتمييزه، وأصلها من الإبصار، لكن المراد هنا إبصار القلوب والعقول، لا مجرد رؤية العين.

والتعبير بالجمع ﴿بَصَائِرُ﴾ يفيد تعدد وجوه البيان التي يشتمل عليها القرآن، فهو يكشف للناس حقائق التوحيد، ويبين لهم طريق العبادة، ويميز لهم الحلال من الحرام، ويكشف عواقب الأعمال، ويعرض سنن الله في الأمم، ويبين ما يصلح به أمر الإنسان في دنياه وآخرته.

ولذلك لم يصف القرآن نفسه بأنه مجرد أخبار أو مواعظ، بل جعله بصائر، لأنه ينقل الإنسان من الجهل والالتباس إلى المعرفة والتمييز، ومن اضطراب المواقف إلى وضوح الطريق.

وقد فسر الطبري البصائر بأنها ما يبصر به الناس الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد، وهذا من أجمع ما يوضح دلالة اللفظ في هذا الموضع .(٥)

ثم قال :﴿وَهُدًى﴾، فبعد أن وصف القرآن بأنه بصائر تكشف الحقائق، وصفه بأنه هدى يقود إلى الطريق الصحيح.

والفرق بين الوصفين أن البصائر تتعلق بكشف الحق وإيضاحه، والهدى يتصل بالدلالة عليه والسير في سبيله .فليس المقصود أن يعرف الإنسان الحق معرفة نظرية فحسب، وإنما أن يهتدي به في اعتقاده وعمله وسلوكه.

وقد اجتمع في هذا الوصف بعدان متكاملان :البيان الذي يزيل الاشتباه، والهداية التي تقود إلى الاستقامة.

ثم قال :﴿وَرَحْمَةٌ﴾، فليست الهداية مجرد تكليف يثقل على الإنسان، ولا بيانًا نظريًا يضاف إلى معارفه، بل هي رحمة من الله بعباده؛ إذ ينقلهم بها من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد والعلم، ومن فساد الأعمال إلى صلاحها، ومن أسباب الشقاء إلى أسباب النجاة.

وفي هذا الوصف إشارة إلى أن الشريعة التي أمر الله باتباعها في الآية السابقة ليست تضييقًا على الإنسان أو حرمانًا له من مصالحه، بل هي من أعظم وجوه رحمة الله به؛ لأنها تحفظ عليه دينه ونفسه وعقله وحقوقه، وتضبط علاقته بربه وبالناس.

وهذا يرد على التصورات التي تجعل الالتزام بالوحي نقيضًا للرحمة أو الحرية أو صلاح الحياة؛ فالقرآن يقرر أن الهدى المنزل رحمة، وأن الاستقامة على أمر الله من أعظم أسباب سعادة الإنسان.

ثم خص الانتفاع بهذه البصائر والهداية والرحمة بقوله :﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولم يقل :للناس أجمعين في وصف الرحمة، مع أنه ابتدأ بقوله :﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ لأن القرآن من حيث قيام الحجة ووضوح البيان موجه إلى الناس جميعًا، أما الانتفاع الكامل به والانقياد له فيتحقق لمن آمن به واستقر اليقين في قلبه.

واليقين هو العلم الثابت الذي لا يتطرق إليه الشك المعتبر، وهو في هذا السياق يتجاوز مجرد معرفة أن القرآن كتاب منزل، إلى الثقة بحقه، والتسليم لما جاء به، والاستعداد للعمل بمقتضاه.

فالإنسان قد يسمع البيان ولا ينتفع به، وقد يرى الدليل ولا ينقاد له، وقد يعرف الحق ثم يحمله الهوى على مخالفته .أما صاحب اليقين فإنه يستقبل الوحي بقلب مستعد للقبول، فيتحول العلم عنده إلى هداية، والهداية إلى عمل، وتكون آثار القرآن في حياته رحمة ظاهرة.

وهذا يفسر تخصيص الموقنين بالذكر في ختام الآية؛ فالقرآن لا يفقد صفة البيان إذا أعرض عنه المعرضون، وإنما يحرمون هم أنفسهم من ثمرة هدايته، كما أن نور الشمس لا ينقص بسبب من أغلق عينيه عنه.

وهنا يظهر اتصال هذه الآية بالمقطع كله؛ فقد أمرت الآية الأولى باتباع الشريعة، وحذرت الثانية من موالاة أهل الظلم والاعتماد عليهم، ثم كشفت الثالثة أن هذا الوحي الذي يأمر بالاتباع ليس مجرد أوامر ونواهٍ، وإنما هو بصائر تهدي الإنسان، ورحمة تصلح حياته.

وبذلك تكتمل الحجة في هذا المقطع من جهاتها الثلاث :مصدر المنهج هو الله، وواجب الإنسان اتباعه دون الخضوع للأهواء، وثمرة هذا الاتباع هي البصيرة والهداية والرحمة.

ومن جهة أخرى، فإن ختام المقطع بقوله :﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يمهد لما بعده؛ إذ تنتقل السورة إلى مساءلة الذين اجترحوا السيئات، وهل يستوي حالهم وحال المؤمنين العاملين بالصالحات، ثم تعرض أدلة القدرة والبعث والحساب .فكأن السورة تنتقل من بيان الطريق الذي يهدي

إلى الحق إلى بيان فساد الحكم الذي يسوي بين أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل الإجرام والسيئات.

وهذا الترتيب يكشف وحدة الحجة القرآنية؛ فالهدى يقتضي التمييز، والتمييز يقتضي ألا يستوي أهل الاستقامة وأهل الانحراف، كما أن العدل الإلهي يقتضي أن يكون لكل فريق جزاؤه.

المراجع

(١) مصحف المدينة النبوية، رواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سورة الجاثية، الآيات ١٨-٢٠ .وتمت مقابلة نص الآيات مع العرض الإلكتروني في منصة القرآن الكريم .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية الثامنة عشرة، عند قوله :﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، في بيان معنى الشريعة واتباعها والنهي عن أهواء الجاهلين .النص الإلكتروني متاح في موقع آية قرآن .

(٣) أبو المظفر السمعاني، *تفسير القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية الثامنة عشرة، في بيان معنى الشريعة، وسبب النهي عن اتباع أهواء المشركين . النص الإلكتروني متاح في موسوعة قرآن بيديا .

(٤) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية التاسعة عشرة، في بيان معنى ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين .النص الإلكتروني متاح في موقع آية قرآن .

(٥) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية العشرون، في تفسير البصائر والهداية والرحمة، وبيان اختصاص الموقنين بكمال الانتفاع بالقرآن .النص الإلكتروني متاح في منصة القرآن الكريم .

(٦) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، تفسير سورة الجاثية، الآيتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، في بيان كمال الشريعة ووجوب اتباعها والنهي عن الأهواء .النص الإلكتروني متاح في موسوعة قرآن بيديا .

(٧) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيات من السادسة عشرة إلى العشرين، في سياق الانتقال من اختلاف بني إسرائيل إلى تقرير الشريعة المحمدية، وما يتصل بذلك من نظم الآيات .النص الإلكتروني متاح في موسوعة قرآن بيديا.

المقطع السادس :إنكار المجرمين استواء أهل الإيمان والصلاح، وإقامة الدليل على عدل الله وحكمته في الجزاء

قال الله تعالى :﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .سورة الجاثية :الآيتان ٢١-٢٢.

التفسير والتحليل

أولًا :إنكار استواء أهل الإيمان وأهل الإجرام

قال الله تعالى :﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢١.

تأتي هذه الآية متصلة بما سبقها من وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة، ومن تقرير أن أهل اليقين هم الذين ينتفعون بهدايته؛ لتنتقل بالسياق إلى قضية لازمة لذلك البيان، وهي أن الناس لا يستوون عند الله في أحوالهم ومصائرهم، وأن اختلافهم في الإيمان والعمل يقتضي اختلاف الجزاء، فلا يستقيم في حكم الله أن يُجعل أهل الطاعة والإحسان كأهل الإجرام والإساءة.

وافتتحت الآية بقوله :﴿أَمْ حَسِبَ﴾، وهو استفهام إنكاري توبيخي، لا يراد به طلب العلم عما يعتقده هؤلاء، وإنما يراد به إبطال هذا الظن واستقباحه .و"أم" هنا منقطعة، بمعنى "بل" مع همزة الاستفهام، فتنتقل بالخطاب إلى إنكار اعتقاد فاسد، وتوقظ السامع إلى فساد الحكم الذي يقوم عليه.

والمعنى :أظن الذين اكتسبوا السيئات أن الله يسوي بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيجعل مصير الفريقين واحدًا؟ إن هذا الظن لا يليق بحكمة الله وعدله، ولا يتفق مع ما أقامه في خلقه وشرعه من التمييز بين الحق والباطل، والطاعة والمعصية.

وتأمل اختيار الفعل ﴿اجْتَرَحُوا﴾ دون مجرد "عملوا" أو "فعلوا"؛ فالاجتراح في أصل اللغة هو الاكتساب، ويستعمل في اكتساب الأعمال، وغلب استعماله في القرآن في السيئات،

لما فيه من تصوير العمل الذي يكتسبه الإنسان ويجنيه على نفسه .ومنه الجوارح، لأنها أدوات اكتساب الأفعال.

وفي هذا التعبير إشعار بأن السيئات ليست أمرًا يطرأ على الإنسان من غير اختيار، بل هي أعمال يكتسبها ويباشرها، ويتحمل تبعتها؛ ولذلك جاء وصف أصحابها بالفعل الذي يدل على الاكتساب، ليكون الحكم المتعلق بهم قائمًا على ما قدموا من أعمال.

ولم يقل :الذين كفروا، وإنما قال :﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، وهو أعم من جهة اللفظ؛ فيشمل من ارتكب السيئات، مع تفاوت مراتبها وأحكام أصحابها، وإن كان سياق السورة يوجه النظر إلى المقابلة بين أهل الإيمان وأهل الإجرام، وما يترتب على ذلك من اختلاف المصير.

ثم قابلهم بقوله :﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فجمع لهم بين صلاح الاعتقاد وصلاح العمل؛ لأن الإيمان أصل الاستقامة الباطنة، والعمل الصالح ثمرة ذلك الإيمان ودليله في واقع الحياة .ولم يكتف بذكر الإيمان وحده، كما لم يكتف بذكر العمل وحده، بل جمع بينهما ليظهر أن النجاة التي يتحدث عنها السياق ليست دعوى مجردة، وإنما إيمان يصدقه العمل.

وهذا الاقتران كثير في القرآن الكريم؛ إذ يربط بين حقيقة الإيمان وآثاره العملية، ويبين أن الإيمان الذي يستقر في القلب له مقتضيات تظهر في السلوك والعمل.

ثم جاء موضع الإنكار في قوله :﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فأسند الجعل إلى الله، لأن الكلام في حكمه وقضائه وجزائه، لا في مجرد المقارنة البشرية بين الناس.

والتسوية المنفية هنا ليست نفيًا لكل وجه من وجوه الاشتراك في الحياة الدنيا؛ فقد يجتمع المؤمن والمجرم في بعض أحوال العيش، وقد يتساويان في بعض أسباب الصحة أو الرزق أو غير ذلك من أحوال الدنيا، وإنما المنفي أن يكون اختلافهما في الإيمان والعمل غير مؤثر في حكم الله ومآلهما، وأن يكون مصيرهما عنده واحدًا لا اعتبار فيه لما اكتسب كل فريق.

وهذا التقييد مهم؛ لأن الآية لا تقرر أن المؤمن لا يصيبه ابتلاء، أو أن المجرم لا ينال شيئًا من متاع الدنيا، وإنما تقرر فساد التسوية بينهما في الجزاء والعاقبة.

ثم جاء قوله :﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، ليفصل وجه التسوية التي ينكرها الله، ويجعلها شاملة لحال الفريقين في الحياة والموت .وفي تركيب الآية تفصيل نحوي وبياني، فقد قرأ جمهور القراء "سواءً" بالنصب، على أنها مصدر مؤكد لمعنى التسوية، أو حال بمعنى مستويًا، وجاءت القراءة المتواترة الأخرى بالرفع "سواءٌ" على وجه يختلف فيه توجيه التركيب، ولا يغير ذلك أصل المعنى الذي تدور عليه الآية، وهو إنكار استواء الفريقين في الحياة والموت.

والمقصود أن يكون حال أهل الإيمان والعمل الصالح وحال أهل السيئات والإجرام سواءً في المآل، وهذا هو الحكم الذي أبطله الله .وقد اختلف المفسرون في تعلق ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالفعل والمعنى، فقيل :المراد استواء حياتهم وموتهم، وقيل :استواؤهم في الحياة الدنيا والموت وما بعده .والذي يظهر أن الآية تنفي التسوية بين الفريقين في الحال والمصير، مع كون سياقها متجهًا إلى الجزاء الأخروي، وهو ما توضحه الآية التالية من ذكر الجزاء على الكسب ونفي الظلم.

ثم ختمت الآية بقوله :﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وهو ذم شديد لهذا الحكم الفاسد .و"ساء" فعل جامد لإنشاء الذم، و"ما" تحتمل أن تكون موصولة أو مصدرية بحسب توجيه الإعراب، والمعنى في الحالين أن حكمهم بالتسوية حكم قبيح منكر.

ولم يقل :أخطؤوا في حكمهم فحسب، بل جاء التعبير ﴿سَاءَ﴾ ليكشف قبح هذا التصور وفساده؛ لأنه لا يخل بالتمييز بين الأعمال وحدها، بل يتضمن نسبة ما لا يليق بحكمة الله وعدله إليه.

فمن اعتقد أن المحسن والمسيء يستويان عند الله في العاقبة، فقد أخطأ في فهم سنن الجزاء، وأغفل أن الله جعل للأعمال آثارًا، وأن اختلاف الناس في مواقفهم من الحق ليس اختلافًا عديم الأثر.

ويظهر هنا اتصال الآية بالمقطع السابق؛ فقد وصف الله القرآن بأنه بصائر للناس، ثم بيّن أن مقتضى هذه البصائر أن يميز الإنسان بين طريق الإيمان وطريق الإجرام، وألا يظن أن وضوح الحق والعمل به لا يترتب عليهما فرق في المصير .فالقرآن يهدي إلى الحق، والعدل الإلهي يقتضي ألا يستوي من استجاب له ومن أعرض عنه واستكبر.

ثانيًا :خلق السماوات والأرض بالحق دليل على عدل الله في الجزاء

قال الله تعالى :﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٢.

بعد أن أنكر الله سبحانه التسوية بين أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل السيئات، لم يترك هذا الإنكار مجرد حكم تقريري، بل أقام عليه دليلًا كونيًا وعقليًا متصلًا بأصل الخلق وحكمته؛ فانتقل من بيان فساد التسوية إلى بيان أن خلق السماوات والأرض قائم على الحق، وأن من مقتضيات هذا الحق أن يُجازى كل إنسان بما كسب، فلا يضيع إحسان المحسن، ولا يُحمل إنسان ذنب غيره، ولا يُسوّى بين المختلفين في أعمالهم ومواقفهم.

وهذا الانتقال من أبلغ وجوه اتصال الآيتين؛ فالآية الأولى تقرر أن التسوية بين الفريقين حكم فاسد، والآية الثانية تكشف أن هذا الفساد لا يتفق مع حقيقة الخلق ولا مع الحكمة التي انتظم بها الوجود.

فقوله :﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يقرر أن خلق العالم لم يكن عبثًا، ولا قائمًا على الباطل والظلم، وإنما كان بالحق الذي يتضمن الحكمة والعدل وإحكام التدبير، فكل ما في هذا الخلق واقع وفق تقدير الله وحكمته، وليس وجود الإنسان وما كُلّف به وما يترتب على أعماله خارجًا عن هذا النظام المحكم.

والباء في قوله :﴿بِالْحَقِّ﴾ تحتمل معنى الملابسة والمصاحبة، أي خلقهما خلقًا متلبسًا بالحق، كما تفيد معنى الحكمة والغاية الصحيحة، لا العبث والباطل .وليس المقصود بالحق مجرد صدق وقوع الخلق، بل ما يتضمنه من الحكمة والتقدير والعدل، وهو المعنى الذي يقتضيه اتصال الكلام بذكر الجزاء.

وقد حرر الطبري هذا المعنى ببيان أن الخلق بالحق هو الخلق للعدل والإنصاف، وأن من مقتضى ذلك ألا يُجعل المسيء كالمحسن، لأن التسوية بينهما في الجزاء تنافي العدل الذي قام عليه الخلق .(١)

وفي إسناد الخلق إلى اسم الله ﴿اللَّهُ﴾ تذكير بأن هذا النظام الكوني العظيم صادر عن الخالق الحكيم، الذي لا تخفى عليه أعمال عباده، ولا يعجزه حفظها ولا إحصاؤها ولا الحكم فيها .

فمن خلق السماوات والأرض على هذا الإحكام لا يخفى عليه ما يصدر عن الإنسان من إيمان أو كفر، ولا يضيع عنده عمل صالح أو سيئ.

ثم جاء قوله :﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليبين وجهًا من وجوه الحكمة في هذا الخلق، وهو إقامة الجزاء على الأعمال.

واللام في ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ لام التعليل، والمعنى أن من حكم الخلق ومقتضياته أن تجزى النفوس بأعمالها، وأن يظهر أثر ما اكتسبته في دار الجزاء .وقد اختلف النحويون في تعلق اللام بما قبلها وتقدير العامل فيها، لكن ذلك لا يغير الدلالة العامة التي دل عليها السياق، وهي اتصال الخلق بالحق بحكمة الجزاء والعدل.

والفعل ﴿تُجْزَىٰ﴾ مبني للمجهول، لأن موضع العناية هنا هو وقوع الجزاء على كل نفس، وبيان أن الجزاء حق لا بد منه، وليس المقصود إعادة ذكر المجازي، فهو معلوم من سياق السورة.

واختير لفظ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ليشمل جميع المكلفين، فلا تخرج نفس من هذا الحكم، مهما اختلفت مكانتها أو منزلتها أو قوتها أو ضعفها؛ فالجميع داخلون في سلطان الله وحكمه، وكل إنسان يلقى نتيجة ما قدم.

وهذا العموم يقطع توهم أن النجاة أو العقوبة تتبع الانتماء المجرد أو المكانة الاجتماعية أو القوة الدنيوية؛ وإنما الاعتبار بما قامت به النفس من إيمان وعمل، وما اكتسبته من خير أو شر، وفق ما قرره الله من أحكامه وعدله.

ثم قال :﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، والكسب هو تحصيل العمل ومباشرته، وفيه إسناد الأعمال إلى أصحابها، وإثبات مسؤولية الإنسان عما اختاره وعمله .وقد سبق في الآية الحادية والعشرين قوله :﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، فجاء هنا لفظ الكسب أعم، ليشمل كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال، حسنة كانت أو سيئة.

وهذا من دقة اتصال الآيتين؛ فالأولى أبرزت اكتساب السيئات في مقام ذم أهل الإجرام، والثانية عممت الحكم على كل نفس، لتقرر أن العمل هو أساس استحقاق الجزاء، وأن الحكم الإلهي لا يقوم على المحاباة ولا على إهدار الحقوق.

وفي قوله :﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ تنبيه إلى أن الجزاء متعلق بما قدمته النفس، لا بما تتمناه أو تدعيه أو تنتسب إليه دون عمل يصدقه .فالانتساب لا يغني عن العمل، والدعوى لا تقوم مقام الحقيقة، وإنما يلقى الإنسان ما يستحقه وفق حكم الله.

وهذا لا يعني أن الجزاء محصور في مقابلة حسابية مجردة بين العمل والثواب؛ فقد ثبت في السنة الصحيحة أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وأن الأعمال أسباب للجزاء وليست أثمانًا مستقلة يستحق بها العبد على الله شيئًا .وإنما الآية تقرر أن الله لا يضيع عملًا، وأنه يجازي كل نفس بما كسبت على وفق فضله وعدله وحكمته.

ثم ختمت الآية بقوله :﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وهذا ختام جامع يرفع كل توهم في طبيعة الجزاء؛ فلا ينقص المحسن من ثواب إحسانه، ولا يحمل أحدًا وزر غيره، ولا يعاقب أحدًا بغير استحقاق، ولا يزاد في سيئات إنسان ما ليس له.

والضمير في ﴿وَهُمْ﴾ عائد إلى النفوس التي يشملها الجزاء، أو إلى أهل الحساب بحسب ما يقتضيه المقام، والمعنى أنهم لا يُنقصون من حقوقهم ولا يُزاد عليهم في عقوبتهم.

وجاء التعبير بالفعل المضارع ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليدل على انتفاء الظلم عنهم في هذا الحكم، وهو نفي شامل لكل صور الجور في الجزاء.

وهنا ينبغي التمييز بين العدل والفضل؛ فالله سبحانه لا يظلم أحدًا، ولكنه يتفضل على من يشاء من عباده، ويضاعف الحسنات، ويعفو عن السيئات، ويقبل التوبة، وكل ذلك من فضله ورحمته، لا من الظلم أو الإخلال بالعدل.

وقد جمع القرآن هذا المعنى في مواضع أخرى، فقال الله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .سورة النساء :الآية ٤٠ .فجمع بين نفي الظلم وإثبات مضاعفة الحسنات، ليظهر أن العدل الإلهي لا يتعارض مع الفضل، بل يجتمعان في حكمه سبحانه.

وهذا المعنى يبين أيضًا أن الجزاء ليس انتقامًا مجردًا، وإنما هو حكم قائم على العلم والعدل والحكمة؛ فمن أحسن وجد إحسانه، ومن أساء لقي جزاء إساءته، ومن تاب وأناب وجد

باب الرحمة مفتوحًا، فلا يُغلق باب التوبة في وجه المذنب، ولا يُساوى بين من استقام على أمر الله ومن أصر على مخالفته.

الصلة بين الآيتين ومقصد المقطع

إذا تأملنا بناء المقطع وجدنا أن الآية الحادية والعشرين بدأت بإنكار التسوية بين أهل السيئات وأهل الإيمان والعمل الصالح، ثم ذمت هذا الحكم، وجاءت الآية الثانية والعشرون لتقيم أساس هذا الإنكار على حقيقة الخلق بالحق، وتربط الجزاء بكسب الإنسان، وتنفي الظلم عن الحكم الإلهي.

فالمعنى لا يقف عند مجرد تقرير أن المؤمن والمجرم مختلفان، وإنما يكشف عن أصل أعمق، وهو أن التفريق بينهما من مقتضيات الحكمة والعدل، وأن تسويتهما في المصير على وجه إهدار اختلاف أعمالهما تناقض الغاية التي انتظم بها الخلق.

ومن هنا يظهر أن الحديث عن الجزاء في هذا الموضع ليس انتقالًا منفصلًا عن موضوع الهداية والشريعة، بل هو امتداد له؛ فالقرآن بصائر وهدى ورحمة، والشريعة طريق الاستقامة، والجزاء ثمرة الموقف الذي اتخذه الإنسان من هذا الهدى.

كما أن الآيتين تمهدان لما بعدهما من الحديث عن الذين اتخذوا أهواءهم آلهة، وأعرضوا عن الحق بعد قيام العلم والحجة عليهم؛ فبعد تقرير أن كل نفس تجزى بما كسبت، يأتي تصوير النفس التي جعلت هواها حاكمًا على إدراكها واختيارها، حتى أعرضت عن الهدى.

وهكذا يتدرج السياق من بيان اختلاف الناس في أعمالهم، إلى تقرير عدل الله في جزائهم، ثم إلى كشف أحد الأسباب التي تقود الإنسان إلى الإجرام والإعراض، وهو استيلاء الهوى على إرادته وحكمه.

تنبيه تحقيقي في القراءات الواردة في الآية الحادية والعشرين

أصحح هنا عبارة وردت في التحليل السابق بشأن قراءة لفظ ﴿سَوَاءً﴾؛ فقد وردت فيه الإشارة إلى أن جمهور القراء قرؤوا بالنصب، وهذا يحتاج إلى ضبط.

ذكر الطبري أن القراءة بالرفع قرأ بها عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة، وأن القراءة بالنصب قرأ بها عامة قراء الكوفة، وبيّن أن القراءتين صحيحتا المعنى، وأن القارئ مصيب بأيتهما قرأ .(١)

فالقراءتان لا تتعارضان في أصل المعنى، وإنما تختلفان في توجيه التركيب والإعراب، وهذا من وجوه التنوع القرائي المؤثرة في توسيع الدلالة، ولا يصح اختزال المسألة في وجه واحد.

المراجع

(١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢١، في تحرير القراءتين بالرفع والنصب، وبيان اختلاف توجيههما اللغوي والتفسيري .النص متاح في موقع جامعة الملك سعود، بوابة القرآن الكريم .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٢، في بيان معنى الخلق بالحق، وعلاقة ذلك بالعدل والجزاء، ونفي الظلم عن النفوس .النص متاح في موقع جامعة الملك سعود، بوابة القرآن الكريم .

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيتان ٢١ و٢٢، في مناسبة تقرير العدل الإلهي لنفي استواء المحسن والمسيء، ودلالة خلق السماوات والأرض بالحق على الجزاء .وقد استفدت من الإحالات إلى موضع تفسيره الواردة في موسوعة الدرر السنية، دون ادعاء مراجعة نسخة مستقلة من الكتاب .

(٤) مصحف المدينة النبوية، رواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، سورة الجاثية، الآيتان ٢١ و٢٢ .وتمت مقابلة النص القرآني مع العرض الإلكتروني المتاح .

(٥) *التفسير الميسر*، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تفسير سورة الجاثية، الآيتان ٢١ و٢٢، في بيان المقابلة بين أهل الإيمان وأهل السيئات، ومعنى الجزاء بالعمل ونفي الظلم .

المقطع السابع :اتخاذ الهوى إلهًا، وأثر الإعراض عن الحق في طمس وسائل الإدراك والهداية، الآية :٢٣ من سورة الجاثية

قال الله تعالى:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٣.

التفسير والتحليل

يقول الله تعالى :﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾ .أي :أخبرني عن حال هذا الإنسان الذي جعل هواه حاكمًا على أمره، ومصدرًا لما يعتقده ويختاره، فلا ينقاد لحقٍّ ثبت له بدليله، وإنما يجعل ما تميل إليه نفسه هو المعيار الذي يزن به الأشياء؛ فما وافق رغبته قبله، وما خالفها أعرض عنه، ولو جاءه الحق واضحًا بيّنًا .وقد بلغ به اتباع الهوى أن صار كأنما اتخذه إلهًا يطيعه ويتبع أمره، فلا تكون العبودية عنده قائمة على التسليم لله، بل على الاستجابة لرغبات النفس وتقلباتها.

والاستفهام في قوله :﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ ليس لمجرد طلب الرؤية، وإنما هو استفهام يلفت النظر إلى حال عجيبة تستحق الاعتبار؛ إذ كيف ينقلب ميزان الإنسان حتى يجعل ما ينبغي أن يكون تابعًا للحق حاكمًا عليه؟ وكيف تتحول الرغبة التي كان ينبغي أن تضبط بالوحي والعقل إلى مرجع أعلى من الوحي نفسه؟

وفي التعبير بقوله :﴿اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تصوير بالغ الدقة لحقيقة الانحراف؛ إذ لم يقل إنه اتبع هواه فحسب، وإنما جعل الهوى في منزلة الإله من جهة الطاعة والانقياد والتحاكم .وليس المراد أن كل من وقع في شهوة أو معصية قد اتخذها إلهًا بالمعنى الاعتقادي، وإنما المقصود بلوغ الهوى منزلة المرجعية التي تستولي على الإنسان، فيجعلها مقدمة على أمر الله، ويستمر في الانقياد لها حتى تصبح هي الموجه الفعلي لموقفه من الحق.

وقد تعددت عبارات السلف والمفسرين في تفسير هذا التركيب؛ فمنهم من حمله على أن الإنسان يجعل دينه تابعًا لما تهواه نفسه، فلا يحل ما أحل الله ولا يحرم ما حرم الله إلا بحسب رغبته، ومنهم من حمله على أنه يعبد ما تستحسنه نفسه وتهواه من المعبودات .وقد ذكر الطبري الوجهين، ثم رجح أن المراد اتخاذ المعبود بحسب الهوى، فيعبد ما تهواه نفسه

دون إله الحق، وهو الأقرب إلى ظاهر التركيب، مع بقاء المعنى الأول داخلًا في الدلالة العامة للآية؛ لأن من جعل هواه مرجعًا في العبادة والتلقي والعمل فقد جعل رغباته حاكمة على دينه .(١)

وهذا المعنى يكشف أن فساد الإنسان لا يبدأ دائمًا بإنكار الحق صراحة، بل قد يبدأ بتقديم الرغبة عليه؛ فيعرف الإنسان وجه الصواب، ثم يبحث عن مخرج يوافق ما يريد، ويعيد تفسير الحقائق بحسب مصالحه وأهوائه .فإذا تكرر ذلك ضعف سلطان الدليل في نفسه، وأصبح الحق عنده مقبولًا بقدر موافقته لرغبته، لا بقدر ثبوته وصحته.

ثم ينتقل السياق من بيان سبب الانحراف إلى بيان عاقبته، فيقول الله تعالى :﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ .أي :قضى عليه بالضلال وخذله عن سبيل الرشاد، على علم منه سبحانه بحاله وما استحقه من الخذلان، أو بعد أن قامت عليه الحجة وبلغه العلم فلم ينتفع به .وهذان وجهان ذكرهما المفسرون في معنى قوله :﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ فالأول يتعلق بعلم الله السابق بحقيقة العبد ومآله، والثاني يتعلق ببلوغ العلم والحجة إلى الإنسان ثم إعراضه عنهما .ولا يلزم من اختلاف الوجهين التضاد؛ إذ علم الله السابق محيط بأفعال العباد وأحوالهم، وإقامة الحجة عليهم ثابتة بحسب ما تقتضيه أحوالهم .(٢)

والذي ينبغي التنبه له أن إسناد الإضلال إلى الله سبحانه لا يعني وقوع الظلم بالعبد أو مؤاخذته بغير سبب، فقد سبق في المقطع السابق تقرير أن الجزاء قائم على الحق والعدل، وأن الله لا يساوي بين المحسن والمسيء .وإنما يأتي هذا الإضلال في سياق بيان مآل من استحكم فيه الإعراض، وأصر على اتباع الهوى بعد ظهور الحق له؛ فاجتمع في الآية بيان سلطان الله في الهداية والضلال، وبيان عدله في الجزاء، دون أن يكون في ذلك نفي لمسؤولية الإنسان عن اختياره وعمله.

ويتصل هذا المعنى اتصالًا وثيقًا بقوله السابق في الآية الحادية والعشرين، حيث أنكر الله استواء الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم قرر في الآية الثانية والعشرين أنه خلق السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .فجاءت هذه الآية لتكشف صورة من صور اكتساب الشر وأسبابه الباطنة؛ فالإنسان

الذي يجعل هواه مرجعًا له يختل ميزانه في معرفة الحق، ثم يكون إصراره على هذا الطريق سببًا في حرمانه من الانتفاع بوسائل الهداية.

ثم يبين الله سبحانه آثار هذا الإضلال فيقول :﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ .أي :طبع على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غطاءً يحول بينه وبين الانتفاع بآيات الهداية ودلائل الحق.

وقد جمع التعبير القرآني هنا بين ثلاث وسائل للإدراك :السمع والقلب والبصر، ولم يذكرها على سبيل الجمع المجرد، بل رتبها ترتيبًا يكشف عن شمول أثر الإعراض؛ فالسمع طريق تلقي الخطاب والموعظة، والقلب موضع الفهم والوعي والاعتبار، والبصر طريق مشاهدة الآيات والدلائل المحسوسة .فإذا عُطلت هذه الوسائل عن الانتفاع بما جعلت له من الهداية، صار الإنسان محاطًا بأسباب الإعراض، يسمع فلا يعتبر، ويفهم فلا ينقاد، ويبصر فلا يستدل.

وتأمل تقديم السمع على القلب، ثم إتباعهما بالبصر؛ فإن الإنسان قد يسمع الحجة، ثم يتدبرها بقلبه، ويستعين بما يشاهده من دلائل الخلق والآيات على إدراك حقيقتها .فإذا استولى الهوى على هذه المنافذ، لم يعد الخلل في نقص الدليل وحده، وإنما في موقف الإنسان من الدليل وطريقة تلقيه له .ولهذا كان الختم على السمع والقلب، وجعل الغشاوة على البصر، تصويرًا لاستحكام الحجب عن الهداية.

والختم في أصل اللغة يدل على الإغلاق والطبع على الشيء، والغشاوة هي الغطاء الذي يستر الشيء ويحجب ظهوره .واختير لكل من السمع والقلب فعل الختم، بينما جاء البصر مع الغشاوة؛ لأن التعبير يصور حجب الانتفاع بهذه الحواس بحسب ما يلائم كلًّا منها .وليس المقصود مجرد العمى الحسي أو الصمم العضوي، وإنما الحجب المعنوي عن إدراك الحق والانتفاع بآياته، كما يدل عليه السياق.

وهذا من التصوير القرآني الذي ينقل المعنى المعنوي إلى مشهد محسوس؛ فالإنسان الذي يعرض عن الحق لا يرى أسباب هدايته على حقيقتها، وإن كانت ظاهرة أمامه، ولا يسمع الموعظة سماع قبول واعتبار، وإن وصلت إلى أذنه .ومن ثم لا يكون فقد الهداية دائمًا ناشئًا عن غياب البيان، بل قد يكون ناشئًا عن فساد الاستجابة له.

وقد أكد ابن كثير هذا المعنى عند تفسير الآية، فذكر أن الختم يمنع الانتفاع بما يسمعه الإنسان ويعيه، وأن الغشاوة تحول بينه وبين إبصار الحجة والاستضاءة بها .وهو معنى يتفق مع سياق الآية وما قررته من اجتماع الإعراض عن الحق مع طمس منافذ الانتفاع به .(٣)

ثم يأتي الاستفهام الذي يكشف نتيجة هذا الانغلاق، فيقول الله تعالى :﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ .أي :فمن يستطيع أن يهدي هذا الإنسان إذا أضله الله وخذله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؟ ومن يملك أن يفتح له أبواب الهداية إذا أصر على الطريق الذي اختاره لنفسه، وأعرض عن أسباب الرشاد التي أقامها الله له؟

والاستفهام هنا إنكاري يفيد نفي القدرة على هداية من استحكم فيه الإضلال بحكم الله؛ فليس لأحد أن يستقل بهدايته من دون الله، ولا يملك أحد أن يرد إليه التوفيق إذا منعه الله عنه بحكمته وعدله .وليس في ذلك انتقاص من وظيفة الأنبياء والدعاة في البلاغ والنصح، وإنما بيان أن الهداية التي تثمر انشراح القلب وقبول الحق بيد الله وحده، وأن مجرد وصول الدعوة لا يستلزم حصول الاهتداء.

ثم يختم الله الآية بقوله :﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .أي :أفلا تتعظون بهذه الحقيقة، وتعتبرون بمآل من جعل هواه قائدًا له، حتى لا تسلكوا طريقه، ولا تعرضوا عن الحق بعد ظهوره لكم؟

والتعبير بالتذكر هنا له دلالة ظاهرة؛ لأن الحجة التي تقررها الآية ليست غريبة عن الفطرة السليمة، وإنما هي حقيقة ينبغي أن يستعيد الإنسان وعيه بها :أن الهوى إذا صار حاكمًا على صاحبه أفسد عليه إدراك الحق، وأن الإعراض المتكرر عن البينات يورث قسوة القلب وحرمانه من الانتفاع بالهداية .فجاء الاستفهام في ختام الآية لإيقاظ العقول من غفلتها، لا لمجرد إتمام الكلام.

وهكذا تنتظم الآية في بناء محكم يبدأ بتشخيص أصل الانحراف، وهو اتخاذ الهوى إلهًا، ثم يكشف مآله في الإضلال والختم والغشاوة، ثم ينتهي إلى تقرير أن الهداية ليست في قدرة أحد استقلالًا عن الله، ويتوج ذلك بدعوة المخاطبين إلى التذكر والاعتبار.

ومن لطيف اتصالها بما قبلها أن الآيتين السابقتين قررتا عدل الله في التفريق بين أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل السيئات، وأثبتتا أن الجزاء مترتب على ما كسبته النفوس؛ فجاءت

هذه الآية لتكشف عن أحد أخطر المسالك التي تقود الإنسان إلى استحقاق العقوبة :أن يستبدل هداية الوحي بحكم الهوى، وأن يجعل رغبته الخاصة مقدمة على الحق الذي قامت عليه الحجة.

وفي هذا دليل على أن الاستقامة لا تتحقق بمجرد امتلاك الإنسان القدرة على التفكير أو سماع الموعظة أو مشاهدة الأدلة، وإنما تحتاج إلى قلب يريد الحق ويقبل الانقياد له .فقد تتوافر أسباب المعرفة، لكن الهوى يحول بينها وبين الانتفاع بها، وقد تتكرر أمام الإنسان البينات، لكنه لا ينتفع بها إذا جعل قبولها تابعًا لموافقته الشخصية.

ومن هنا تتجاوز الآية تصوير حال المشرك الذي يعبد ما تهواه نفسه من دون الله، إلى تقرير قاعدة إيمانية عامة في خطر الهوى حين يستولي على الحكم والاختيار؛ فلا يصح أن يجعل المؤمن ميله الشخصي ميزانًا لقبول أمر الله أو رده، بل يزن رغباته بميزان الوحي، ويجاهد نفسه إذا تعارضت رغبتها مع الحق.

وليس المراد بهذا أن الإنسان مطالب بإلغاء رغباته الفطرية أو أن كل ميل نفسي مذموم، وإنما المذموم أن تتحول الرغبة إلى مرجع أعلى من أمر الله، وأن يقدم الإنسان ما تشتهيه نفسه على ما ثبت أنه حق .فالهوى إذا انضبط بالوحي لم يكن مذمومًا من حيث وجوده، وإنما موضع الخطر أن يستقل بتوجيه الإنسان، فيقوده إلى تحريف الحق أو الإعراض عنه.

وبذلك تكون الآية قد نقلت الخطاب من بيان عدل الجزاء إلى كشف الأسباب الباطنة للانحراف، ومهدت لما بعدها من عرض شبهات منكري البعث ومواقفهم من الحياة والموت؛ إذ إن من استولى عليه الهوى قد يرفض الحقائق التي تخالف تصوره ورغبته، ثم يصوغ لنفسه من الاعتراضات ما يبرر به إعراضه.

فالآية لا تكتفي بالتحذير من عبادة الأصنام الظاهرة، بل تكشف عن أصل أعمق من أصول الانحراف :أن يصبح الإنسان عبدًا لما تهواه نفسه، فيفقد بذلك ميزان التمييز بين الحق والباطل، ويعرض نفسه للحرمان من الهداية .وهذه هي العبرة التي يريد السياق أن يوقظ بها القلوب قبل الانتقال إلى ما يأتي من حديث المكذبين بالبعث والجزاء.

المراجع

(١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٣، عند تفسير قوله :﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ . وقد روجع النص الإلكتروني، وفيه عرض الأقوال المنقولة عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وتحرير اختلاف المفسرين في معنى اتخاذ الهوى إلهًا .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٣، عند تفسير قوله :﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، في بيان معنى الإضلال والعلم السابق، وما يتصل به من تفسير السلف .

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٣، في تفسير الختم على السمع والقلب، والغشاوة على البصر، وبيان وجهي تفسير الإضلال على علم .النص متاح في موقع جامعة الملك سعود، بوابة القرآن الكريم .

(٤) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٣، في بيان معنى اتخاذ الهوى إلهًا، وأقوال السلف في ذلك .النص متاح إلكترونيًا في موقع جامعة الملك سعود .

(٥) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، *مصحف المدينة النبوية*، رواية حفص عن عاصم، سورة الجاثية، الآية ٢٣ .وتمت مقابلة نص الآية مع العرض القرآني الإلكتروني.

المقطع الثامن :إنكار منكري البعث وحصر الحياة في الدنيا، وبيان سلطان الله في الإحياء والإماتة والبعث؛ الآيات :٢٤-٢٦ من سورة الجاثية

قال الله تعالى:﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ سورة الجاثية :الآيات ٢٤-٢٦.

التفسير والتحليل

الآية الرابعة والعشرون :حصر الوجود في الحياة الدنيا ونسبة الموت إلى الدهر

قال الله تعالى :﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٤.

بعد أن كشف السياق في الآية السابقة عن الإنسان الذي جعل هواه حاكمًا على اعتقاده واختياره، وأعرض عن وسائل الهداية والاعتبار، ينتقل إلى صورة عملية من صور هذا الانحراف، وهي إنكار البعث، وحصر الوجود الإنساني في الحياة الدنيا، واعتقاد أن الموت والحياة لا يتجاوزان تعاقب الأجيال ومرور الزمن.

فقوله :﴿وَقَالُوا﴾ عائد إلى أولئك المكذبين الذين تقدم الحديث عن موقفهم من الحق، وهو انتقال من بيان السبب الباطن للإعراض، المتمثل في اتباع الهوى، إلى إظهار مضمونه العقدي وما ترتب عليه من إنكار الآخرة .وكأن السياق يكشف أن فساد التلقي حين يستحكم لا يقف عند رفض الهداية، بل ينتج تصورات فاسدة عن حقيقة الوجود ومصير الإنسان.

وقوله :﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يفيد القصر، أي ليس وراء هذه الحياة التي نشاهدها حياة أخرى نعود إليها بعد الموت، وإنما الوجود عندهم محصور في هذه الحياة المشهودة .والضمير في ﴿هِيَ﴾ عائد إلى الحياة، أو إلى الحال والشأن الذي يتحدثون عنه، والمعنى في الوجهين متقارب؛ إذ ينكرون أن يكون للإنسان وجود أخروي بعد انقضاء أجله.

ولم يأت التعبير القرآني بلفظ الحياة مطلقًا، وإنما وصفها بالدنيا، وهو وصف يضعها في منزلتها الحقيقية من جهة أنها مرحلة أولى من الوجود، وليست نهاية المصير .أما هم فقد جعلوها

كل الوجود، فوقع الخلل في تصورهم قبل أن يقع في حكمهم على البعث؛ لأنهم نظروا إلى ما يشاهدونه من الموت والفناء، ولم يتجاوزوا ذلك إلى قدرة الخالق الذي أنشأ الحياة ابتداءً.

ثم يقولون :﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ .وهذه العبارة تحتمل عند المفسرين وجهين مشهورين :أن المراد يموت بعضنا ويحيا بعضنا، فيذهب جيل ويأتي بعده جيل، أو أن المراد نموت بعد الحياة ونحيا في الدنيا، فيكون الكلام وصفًا لتقلب الإنسان بين الحياة والموت .والمعنى الأول أوضح اتصالًا بما بعده من نسبة الإهلاك إلى الدهر، إذ يصور تعاقب الأجيال، فلا يرون وراء ذلك بعثًا ولا حسابًا .(١)

والتعبير بالمضارعين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يستحضر حركة الحياة المتجددة أمام أعينهم؛ فالأحياء يموتون، والأجيال تتعاقب، والناس يولدون ويذهبون .لكنهم يقفون عند وصف الظاهرة ولا ينفذون إلى دلالتها، فيرون تعاقب الموت والحياة ولا يتساءلون عن موجد الحياة ومقدر الموت، ولا عن الحكمة التي اقتضت أن تكون الحياة محدودة الأجل.

ثم يكشف القرآن عن أصل تصورهم بقوله :﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ .أي :لا يرون سببًا وراء موتهم إلا مرور الزمان وتعاقب الأيام والليالي، فينسبون ما ينزل بهم من الموت والفناء إلى الدهر، وكأن الزمن هو الفاعل المستقل الذي يتولى إهلاك الأحياء.

والدهر في أصل اللغة اسم للزمان الممتد، وقد يراد به الزمن الطويل أو مطلق الزمان بحسب السياق .وليس في مجرد استعمال هذه الكلمة إشكال؛ وإنما موضع الإنكار أن يُجعل الدهر فاعلًا مستقلًا بالإهلاك، وأن تُنسب إليه الحوادث على وجه ينفي تدبير الله وقدرته.

وهذا المعنى يتصل بما صح عن النبي ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال :"قال الله تعالى :يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار" .أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله :﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، ومسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر.(٢)

ومعنى قوله :"وأنا الدهر" ليس أن الدهر اسم من أسماء الله الحسنى، ولا أن الزمان هو الله سبحانه، وإنما المراد أن الله هو المدبر لما يقع في الدهر، والمصرف لحوادثه، فلا يملك الزمن

لنفسه فعلًا ولا تدبيرًا .ولهذا جاء تفسير الحديث بقوله :"بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار"، فدل على أن تقلب الزمان وما يقع فيه من حياة وموت وسائر الحوادث راجع إلى تدبير الله ومشيئته.

وهنا تظهر دقة الصلة بين الآية والحديث، فالقرآن يحكي مقالة الذين جعلوا الدهر سببًا مستقلًا للإهلاك، والحديث ينهى عن سب الدهر لما يتضمنه ذلك من توجيه الذم إلى ما لا يملك التصرف، مع أن المدبر حقيقة هو الله سبحانه .فالخطأ ليس في الإخبار عن مرور الزمن أو نسبة الحوادث إلى أوقاتها، وإنما في اعتقاد استقلال الدهر بالتأثير أو سبه على وجه يعود إلى الاعتراض على تدبير الله.

ثم يرد الله على هذه المقالة بقوله :﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ .أي :ليس لهم علم صحيح يثبت ما ذهبوا إليه من حصر الحياة في الدنيا، أو نفي البعث، أو جعل الدهر المتصرف في الموت والإهلاك .والنفي هنا لا يتعلق بمجرد أنهم لم يشاهدوا البعث، بل يتعلق بادعائهم حقيقة غيبية لا يملكون عليها برهانًا.

والتعبير بقوله :﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مع دخول حرف الجر الزائد في سياق النفي يفيد استغراق النفي، أي ليس لهم شيء من العلم الذي يسند هذه الدعوى .وهذا من أقوى وجوه إبطال المعتقدات التي تُبنى على مجرد الظن، إذ لا يكفي أن تكون الفكرة مألوفة أو أن تتكرر مشاهداتها حتى تصبح حقيقة علمية ثابتة.

ثم يقرر حقيقة حالهم بقوله :﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .أي :ما هم إلا أصحاب ظن وتخمين، لا يستندون إلى علم ولا يقوم قولهم على حجة .فجاء القصر بالنفي والاستثناء ليكشف أن حقيقة موقفهم ليست علمًا يقينيًا، وإنما تصور غير مستند إلى دليل.

وفي هذا التعبير مقابلة دقيقة بين ﴿عِلْمٍ﴾ و﴿يَظُنُّونَ﴾ ؛ إذ ينقل الخطاب القضية من ادعائهم تقرير حقيقة الوجود إلى كشف الأساس المعرفي الهش الذي أقاموا عليه هذا الادعاء .فهم لا يملكون دليلًا على نفي البعث، وإنما يستنتجون نفيه من عدم مشاهدتهم له، وهذا استدلال فاسد، لأن عدم مشاهدة الشيء لا يستلزم استحالة وقوعه، ولا سيما إذا تعلق الأمر بقدرة الخالق الذي أنشأ الإنسان أول مرة.

الآية الخامسة والعشرون :سقوط الحجة أمام وضوح البينات

قال الله تعالى :﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٥.

بعد أن كشف الله سبحانه عن حقيقة اعتقادهم في الآية السابقة، وأن إنكارهم للبعث قائم على الظن لا على العلم، ينتقل السياق إلى تصوير موقفهم حين تواجههم آيات الوحي بالحجة والبيان .فالمسألة لم تعد مجرد اعتقاد باطني يصرحون به، وإنما أصبحت موقفًا عمليًا يظهر عند إقامة الدليل عليهم؛ إذ لا يملكون جوابًا علميًا عن البينات، فينتقلون إلى المطالبة بأمر ليس من مقتضى الحجة التي أقيمت عليهم.

فقوله :﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يصور حالهم عند سماع القرآن، وآيات الله هنا تشمل ما يتلى عليهم من الوحي والدلائل التي توضح حقيقة البعث وقدرة الله على إعادة الخلق . ووصفها بأنها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يدل على ظهور دلالتها ووضوح حجتها، فهي ليست أدلة خفية تحتاج إلى تكلف لإدراكها، وإنما آيات يتبين بها الحق لمن طلبه وأنصف في تلقيه.

وفي إضافة الآيات إلى ضمير العظمة في ﴿آيَاتُنَا﴾ تشريف لها، وإظهار لمصدرها الإلهي، وفي ذلك تنبيه إلى أن معارضتهم ليست مجرد خلاف فكري مع بشر، وإنما هي إعراض عن آيات الله التي جاءتهم لتخرجهم من الظن إلى اليقين.

ثم يقول سبحانه :﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ .أي :لم يكن لهم جواب يحتجون به في مواجهة تلك الآيات إلا هذا القول الذي حكاه الله عنهم .والتعبير بـ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ فيه تهكم بموقفهم؛ لأن ما ذكروه ليس حجة في الحقيقة، وإنما هو اعتراض ناشئ عن الجحود والعناد . فسمّاه حجة بحسب دعواهم ومقام احتجاجهم، لا بحسب حقيقته وقوته.

وهذا من دقة التعبير القرآني؛ إذ لم يقل إنهم أقاموا دليلًا يعارضون به الوحي، وإنما كشف عن حقيقة ما يسمونه حجة، ليظهر الفرق بين الدليل الذي يقوم على البرهان، والاعتراض الذي يتخذ صورة المطالبة والتحدي دون أن يجيب عن أصل القضية.

ثم حكى مقالتهم :﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .أي :أحضروا آباءنا الذين ماتوا، وأعيدوهم إلى الحياة إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من البعث والحساب.

وهنا يظهر الخلل في احتجاجهم؛ إذ جعلوا وقوع البعث في المستقبل مشروطًا بأن يشاهدوا إعادة الموتى في الدنيا، مع أن دعوى القرآن ليست أن الموتى سيعودون في كل وقت يطلب فيه المكذبون ذلك، وإنما أن الله يبعث الخلق في الموعد الذي اقتضته حكمته، ويجمعهم ليوم القيامة .فمطالبتهم بإحضار آبائهم ليست نقضًا لدليل البعث، وإنما هي نقل للنقاش من إثبات القدرة على الإحياء بعد الموت إلى طلب تعجيل أمر غيبي لم يجعل الله وقوعه تابعًا لرغباتهم.

ومن جهة أخرى، فإنهم لم يجيبوا عن الدليل الذي يثبت قدرة الله على الخلق والإعادة، ولم يناقشوا حقيقة النشأة الأولى، وإنما طالبوا بمشاهدة النتيجة قبل أوانها .وهذا يكشف عن اضطراب في تصورهم لطبيعة الدليل؛ فليس كل أمر غيبي لا يثبت إلا بمشاهدته، بل قد تثبت حقيقته بالخبر الصادق والبرهان الصحيح، ولا سيما إذا كان المتكلم هو الخالق القادر الذي لا يعجزه شيء.

وفي هذا المعنى يلتقي هذا الموقف مع ما حكاه القرآن عن منكري البعث في مواضع أخرى، حين جعلوا استبعاد الإعادة ناشئًا عن قياس قدرة الخالق على قدرة المخلوق، أو عن استبعاد رجوع الأجساد بعد تفرقها .وقد رد القرآن على هذا الأصل بإقامة الدليل على النشأة الأولى، وعلى أن الذي أنشأ الخلق ابتداءً قادر على إعادته.

وتأمل اختيار لفظ ﴿آبَائِنَا﴾ بدلًا من مجرد قولهم :أحيوا الموتى؛ فإن في ذلك استحضارًا للقرابة والموروث الإنساني، وكأنهم يستندون إلى أقرب مثال محسوس عندهم، وهو موت آبائهم وذهابهم، ثم يجعلون عدم عودتهم في الحال دليلًا على استحالة بعثهم .لكن هذا الاعتراض لا يغير حقيقة المسألة؛ لأن تأخر وقوع الشيء لا يدل على استحالته، وإنما يدل على أن له أجلًا لم يأت بعد.

والذي يظهر من سياق الآية أن الغرض ليس مجرد تسجيل مقالة تاريخية للمكذبين، بل كشف طبيعة الإعراض حين يتحول إلى جدل عقيم؛ فالإنسان إذا لم يرد قبول الحق، أمكنه أن ينتقل من اعتراض إلى آخر، لا لأنه يبحث عن الحقيقة، وإنما لأنه يريد دفع الحجة بأي صورة .ولهذا جاء وصف الآيات بالبينات قبل حكاية اعتراضهم، ليكون القارئ على بينة من أن المشكلة لم تكن في خفاء الدليل، وإنما في موقفهم منه.

وهكذا تتصل الآية بما قبلها اتصالًا وثيقًا؛ فقد نفت عنهم العلم في الآية الرابعة والعشرين، ثم أظهرت في هذه الآية صورة من صور افتقادهم للحجة، فكان القول بطلب إحياء الآباء شاهدًا على أن إنكارهم لا يستند إلى برهان يثبت استحالة البعث، وإنما إلى مكابرة في مواجهة ما أقامه الوحي من أدلة.

الآية السادسة والعشرون :تقرير سلطان الله في الإحياء والإماتة والجمع للقيامة

قال الله تعالى :﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٦.

بعد أن عرض الله اعتراضهم المتمثل في طلب إحضار آبائهم، جاء الجواب الإلهي مختصرًا في ألفاظه، عظيمًا في دلالته، يعيد القضية إلى أصلها الصحيح :أن الله هو الذي يملك الإحياء والإماتة، وهو الذي يجمع الخلق ليوم القيامة .فلا يملك المكذبون تحديد موعد البعث، ولا جعل وقوعه تابعًا لاقتراحاتهم، وإنما الأمر كله لله وحده.

ويبدأ الجواب بقوله :﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ .والأمر بالقول للنبي ﷺ يتضمن تكليفه بإبلاغهم الحقيقة التي ينبغي أن يرجعوا إليها في هذا النزاع؛ فبدلًا من مجاراتهم في طلب إحضار الآباء، يردهم إلى أصل القدرة التي لا يعجزها شيء .فالله هو الذي أوجدهم ابتداءً، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، ومن الموت الذي كانوا عليه قبل الحياة إلى الحياة التي يشاهدونها.

وفي تقديم لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ على الفعل ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ إبراز لمصدر الفعل، وتوجيه للأنظار إلى الفاعل الحقيقي الذي ينفرد بالقدرة والتدبير .فكأن الجواب يقرر لهم أن الذي يملك الإحياء ليس الزمن ولا الطبيعة ولا تعاقب الأجيال، وإنما الله وحده.

وهذه الحقيقة هي نفسها التي غفلت عنها مقالتهم السابقة؛ فقد نسبوا الإهلاك إلى الدهر، وأنكروا وجود حياة أخرى بعد الدنيا، فجاء الجواب بإثبات أن الله هو المحيي والمميت، وأن مصير الإنسان لا ينتهي عند الموت.

ثم يقول الله سبحانه :﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ .أي :يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، فالحياة والموت كلاهما داخلان في سلطان الله وتدبيره .وليس الموت حادثًا مستقلًا عن مشيئته، ولا مجرد أثر زمني لا فاعل له، بل هو انتقال يقع بأمر الله وقدره.

وجاء العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة الترتيب والتراخي بين الإحياء والإماتة، بحسب تعاقب مراحل وجود الإنسان؛ إذ يبدأ حيًا بإيجاد الله له، ثم ينتهي أجله فيموت .وهذا الترتيب يضع الموت في موضعه الصحيح :ليس نهاية سلطان الله على الإنسان، وإنما مرحلة من مراحل وجوده الذي يتصرف فيه الخالق كيف يشاء.

ثم ينتقل السياق إلى المرحلة التي أنكروها، فيقول الله تعالى :﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ . أي :يجمعكم بعد موتكم، ويعيدكم للحساب والجزاء في اليوم الذي وعدكم به، فلا يترككم بعد الموت سدى، ولا يجعل انقضاء أعماركم نهاية للمسؤولية عن أعمالكم.

وهنا تتجلى دقة الترتيب القرآني؛ فقد ذكر الإحياء أولًا، ثم الإماتة، ثم الجمع للقيامة .وهذا ترتيب يحيط بمراحل الوجود الإنساني :نشأة وحياة، ثم موت، ثم بعث وجمع .فالقضية التي أنكروها ليست أمرًا منفصلًا عن مشاهداتهم، بل هي الحلقة التي يتم بها تمام هذا المسار، ويظهر بها العدل في الجزاء الذي قررته الآيات السابقة.

وقد جاء هذا المعنى مؤكدًا في آيات أخرى، منها قول الله تعالى :﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .سورة البقرة :الآية ٢٨ .فهذه الآية تذكر النشأة الأولى، والموت، والإحياء الثاني، والرجوع إلى الله، وتكشف أن الإعادة ليست خارجة عن سنن القدرة الإلهية، بل هي امتداد لسلطان الخالق الذي أوجد الإنسان أول مرة .(٣)

وفي قوله :﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تحديد للغاية التي ينتهي إليها الجمع، وهو اليوم الذي تنكشف فيه حقيقة الأعمال، ويظهر فيه عدل الله في الحكم بين عباده .ولم يقل :ثم يجمعكم في الدنيا، لأن الجمع المقصود ليس اجتماع الأجيال أو عودة بعض الموتى إلى الحياة في مرحلة زمنية عابرة، وإنما هو الجمع العام الذي يشمل الخلق للوقوف بين يدي الله.

ثم يأتي التوكيد بقوله :﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ .أي :لا شك في وقوع ذلك اليوم وثبوته، فهو وعد حق لا يتطرق إليه الاحتمال من جهة صدق المخبر به وقدرته على إنفاذه .والنفي هنا ليس حكاية عن انتفاء الشك عند الناس جميعًا، فقد سبق أن وصف المكذبين بإنكارهم، وإنما هو تقرير لانتفاء الشك عن حقيقة اليوم في نفس الأمر.

وهذا الانتقال من حكاية إنكارهم إلى تقرير اليقين بوقوع القيامة يرد على أساس موقفهم؛ فهم جعلوا عدم المشاهدة سببًا للإنكار، أما القرآن فيقرر الحقيقة بناءً على صدق الخبر الإلهي وكمال القدرة .فالقيامة ليست متوقفة على تصديقهم حتى تقع، ولا على مشاهدتهم حتى تثبت.

ثم يختم الله الآية بقوله :﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .أي :أن أكثر الناس لا يدركون حقيقة هذا الوعد، ولا يحيطون بما يترتب على إنكارهم من فساد الاعتقاد واضطراب تصورهم للمصير .وليس المراد أن العلم بوجود الله أو القدرة على الخلق غائب عن كل الناس، وإنما المقصود أن أكثرهم لا يعلمون حقيقة البعث وما يتصل به من جمع الخلق والحساب والجزاء، ولذلك يستبعدونه وينكرونه.

واختيار لفظ ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ بدلًا من إطلاق الحكم على جميعهم يتضمن أن العلم بهذه الحقيقة ثابت لمن هداه الله ووفقه للإيمان، وأن الجهل بها ليس لازمًا للإنسان من حيث خلقته، وإنما يقع بسبب الإعراض عن الوحي واتباع الظن والهوى.

وهنا تعود الآية إلى القضية التي افتتح بها المقطع في قوله :﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، فتتكرر دلالة العلم والجهل في طرفي المقطع؛ بدأ بفضح الظن الذي أقاموا عليه إنكارهم، وانتهى ببيان أن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة يوم القيامة .وبين الطرفين جاءت مطالبتهم بإحياء آبائهم، ثم جاء الرد بإثبات سلطان الله في الإحياء والإماتة والجمع.

وهذا البناء يكشف أن المقطع ليس مجرد عرض لعقيدة منكري البعث، وإنما هو إقامة حجة متدرجة عليهم :يذكر أولًا مقالتهم في حصر الحياة بالدنيا، ثم يكشف خلوها من العلم، ثم يعرض اعتراضهم عند مواجهة البينات، ثم يردهم إلى حقيقة القدرة الإلهية التي تنقض أصل اعتراضهم.

المراجع

(١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٤، عند تفسير قوله :﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، في بيان مقالة منكري البعث، واختلاف توجيه قوله :﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وتفسير نسبة الإهلاك إلى الدهر .النص متاح إلكترونيًا في موقع القرآن الكريم .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، *الجامع الصحيح*، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، حديث رقم ٤٨٢٦؛ ومسلم بن الحجاج، *الصحيح*، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر .حديث أبي هريرة رضي الله عنه في النهي عن سب الدهر وبيان أن الأمر بيد الله .

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة الجاثية، الآيات ٢٤-٢٦، في بيان إنكار البعث، واعتراض المكذبين بطلب إحياء آبائهم، والاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان الإعادة .

(٤) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٤، في بيان فساد قول منكري البعث وافتقارهم إلى العلم والبرهان .

(٥) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، *مصحف المدينة النبوية*، رواية حفص عن عاصم، سورة الجاثية، الآيات ٢٤-٢٦، مع مقابلة النص القرآني بالعرض الإلكتروني .

(٦) *التفسير الميسر*، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تفسير سورة الجاثية، الآيات ٢٤-٢٦، في بيان حصر منكري البعث الحياة في الدنيا، وفساد احتجاجهم، وإثبات البعث والجزاء.

المقطع التاسع :انفراد الله بملك السماوات والأرض، وقيام الساعة، وخضوع المكذبين لحكم الله، وظهور خسارتهم يوم القيامة؛ الآيات :٢٧-٣٢

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

التفسير والتحليل

الآية السابعة والعشرون :انفراد الله بالملك وظهور خسارة المبطلين

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٧ .

وهذه الآية متصلة بما قبلها اتصالًا محكمًا؛ فقد انتهى المقطع السابق بإثبات أن الله هو الذي يحيي الخلق ويميتهم ثم يجمعهم ليوم القيامة، وأن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك، فجاءت هذه الآية لتقرر الأصل الذي تنتظم فيه تلك الأفعال جميعًا، وهو انفراد الله بملك السماوات والأرض، وأن من كان له الملك المطلق فهو وحده المتصرف في خلقه، المحيي والمميت، والجامع لعباده، والحاكم بينهم يوم القيامة.

وفي افتتاح الآية بقوله :﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقديم للجار والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿مُلْكُ﴾، وفيه إبراز لاختصاص الله بالملك الحقيقي المستقل، وإن كان غيره يملك شيئًا من متاع الدنيا ملكًا محدودًا مؤقتًا، فإن ذلك الملك عارية وتحت سلطان المالك سبحانه، لا يخرج عن تدبيره ولا يستقل صاحبه بالتصرف فيه.

والمقصود بملك السماوات والأرض ملكهما خلقًا وتدبيرًا وتصرفًا، فلا يشاركه أحد في أصل الإيجاد، ولا يخرج شيء عن سلطانه، ولا يكون في الوجود أمر ينازعه في حكمه .وقد حرر الطبري هذا المعنى ببيان أن ما يعبده المشركون من دون الله داخل في ملكه وسلطانه، جارٍ

عليه حكمه، فكيف يكون المملوك شريكًا لمالكه؟ وهذا وجه احتجاج الآية على أصل الشرك، وليس مجرد تقرير لحقيقة الملك من حيث هي .(٧)

ومن هنا تظهر الصلة بين صدر الآية وما سبقها؛ فإن منكري البعث حين طالبوا بإحياء آبائهم جعلوا عدم وقوع ما طلبوه في الحال ذريعة إلى الإنكار، فجاء الرد بأن الله هو المالك المتصرف، وأن الإحياء والإماتة والجمع كلها من آثار ملكه، فلا يُسأل عن موعد فعله ولا يُقاس تدبيره على رغبات المكذبين.

ثم ينتقل السياق إلى مشهد القيامة بقوله :﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ . والساعة هي القيامة التي يقوم فيها الخلق لرب العالمين، وسميت ساعة لقربها في تقدير الله، أو لسرعة وقوعها بالنسبة إلى ما مضى من عمر العالم، وقد غلب استعمالها في اليوم الذي يبعث فيه الناس للحساب والجزاء.

وقوله :﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيد لزمن وقوع الخسران، وفي تكرار الإشارة إلى اليوم استحضار له وتفخيم لشأنه؛ فكأن السامع ينتقل من تقرير الملك في الدنيا إلى مشاهدة أثر هذا الملك حين تنكشف الحقائق ويظهر الحكم الإلهي على الخلق.

أما ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ فهم الذين أقاموا اعتقادهم وأعمالهم على الباطل، فأبطلوا الحق بإنكارهم، وجعلوا لله شركاء، وكذبوا بالبعث والجزاء .واللفظ أوسع دلالة من مجرد وصفهم بالكافرين؛ إذ يشير إلى فساد ما اعتقدوه، وبطلان ما احتجوا به، وضياع ما بنوه على ذلك من مواقف وأعمال.

ولفظ الخسران هنا ليس خسارة مال أو جاه فحسب، وإنما هو خسارة المصير؛ إذ ينكشف للإنسان أن ما ظنه نجاة كان سبب هلاكه، وأن ما أعرض عنه من الحق كان سبيل الفوز . وقد أشار الطبري إلى أن خسران المبطلين يتجلى في ذهاب منازلهم التي كانت مهيأة لهم في الجنة، وحرمانهم منها، ومصيرهم إلى العذاب .(٧)

وهكذا تنقل الآية النظر من ملك الله المطلق إلى مقتضى هذا الملك في يوم الفصل :فليس من الحكمة أن يخلق الله الخلق ثم يتركهم بلا حساب، ولا أن يستوي المحق والمبطل في

العاقبة؛ بل إن قيام الساعة هو الموعد الذي يظهر فيه أثر الحق، وينكشف فيه بطلان ما عارضه.

الآية الثامنة والعشرون :مشهد الأمم جاثية واستدعاؤها إلى كتب أعمالها

قال الله تعالى :﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٨ .بعد أن قررت الآية السابقة خسارة المبطلين يوم القيامة، أخذ السياق يصور ذلك اليوم تصويرًا مشهديًا، فينتقل من الخبر العام عن الخسران إلى هيئة الأمم حين تقف بين يدي الله، وقد اجتمعت الخلائق، وزال ما كان بينها في الدنيا من تفاوت في القوة والسلطان، وصار الجميع في موقف الحساب والانتظار.

وقوله :﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ خطاب للنبي ﷺ، ويدخل في معناه كل من يصح منه أن يرى ذلك المشهد، أو يكون المراد به إحضار الصورة في ذهن المخاطب حتى كأنه يشاهدها . والجثو هو الجلوس على الركب، ويقال :جثا يجثو جثوًّا، إذا جلس على ركبتيه، وهي هيئة تدل في هذا المقام على الخضوع والانتظار وشدة الموقف.

وليس المقصود مجرد هيئة جسدية عارضة، بل تصوير حال الأمم حين تدرك هول ما أقبلت عليه، وتنتظر ما يقضى به في شأنها .وقد ذكر أهل اللغة والتفسير أن الجثو يكون على الركب، وهي هيئة من يترقب الحكم أو يواجه أمرًا عظيمًا لا يملك دفعه .(٨)

وتأمل قوله :﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾، فقد عمم المشهد فلم يستثن أمة من الأمم، ثم أعاد اللفظ نفسه في قوله :﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، وفي هذا التكرار تقوية لمعنى الاستغراق، مع الانتقال من بيان الهيئة العامة إلى بيان ما يترتب عليها من الاستدعاء والمحاسبة .فليست الأمم مجتمعة في مشهد واحد فحسب، بل لكل أمة موقفها وحسابها وكتابها الذي تعرض عليه أعمالها.

والمراد بالكتاب هنا ما يتعلق بأعمال الأمة وأفرادها، من صحائف الأعمال التي أحصيت فيها أفعالهم، أو ما يختص بكل أمة من كتابها الذي تتلقى به حكم الله عليها .ولا يلزم من الإضافة إلى الأمة أن يكون لكل أمة كتاب منفصل لا يندرج فيه أفرادها؛ فالقرآن يثبت كذلك أن كل إنسان يلقى كتاب عمله، وأنه يحاسب على ما قدم.

ثم يأتي قوله :﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهو خطاب ينتقل من الغيبة في قوله : ﴿كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ﴾ إلى المواجهة المباشرة بقوله :﴿تُجْزَوْنَ﴾ .وهذا الالتفات ينقل المشهد من مجرد الرؤية إلى مقام المساءلة؛ فكأن الأمم بعد أن شوهدت جاثية، وُوجهت بالحقيقة التي جاء وقت ظهورها :هذا يوم الجزاء، ولا ينفع فيه إنكار ولا اعتذار بغير حق.

والتعبير بـ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يشمل أعمالهم التي باشروها في حياتهم، خيرها وشرها، ظاهرها وباطنها مما يعلمه الله ويحاسب عليه .ولم يقل :بما كنتم تقولون، لأن المسؤولية لا تقف عند الاعتقاد المعلن أو القول المجرد، بل تتناول العمل الذي تجسد فيه الاعتقاد وظهرت آثاره في حياة الإنسان.

وفي هذا دليل على كمال العدل الإلهي؛ إذ لا يكون الجزاء اعتباطًا، ولا يقع على مجرد الدعوى، وإنما يرتبط بما قدمه العبد من عمل .كما أن في الآية تنبيهًا إلى أن اجتماع الناس في الدنيا تحت اسم أمة أو جماعة لا يعفي أفرادها من مسؤولياتهم؛ فلكل إنسان عمله، ولكل أمة ما قدمت، والحساب قائم على العلم والعدل.

وهذا المشهد يمهد للآية التالية؛ فبعد أن أخبر سبحانه أن كل أمة تدعى إلى كتابها، يبين حقيقة هذا الكتاب، ويكشف أنه ليس سجلًا ساكتًا يمكن دفع ما فيه، بل كتاب ينطق بالحق ويشهد على صاحبه بما عمل.

الآية التاسعة والعشرون :كتاب الأعمال الناطق بالحق وإحاطة العلم الإلهي

قال الله تعالى :﴿هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢٩ .لما ذكر سبحانه أن كل أمة تدعى إلى كتابها، وأنها تجزى بما كانت تعمل، جاء بهذه الآية لتكشف حقيقة ذلك الكتاب، وتقرر أن الحساب لا يقوم على دعوى مجردة، ولا على شهادة تحتمل المحاباة أو النقص، وإنما يقوم على سجل محفوظ يشهد بالحق، ويعرض الأعمال كما وقعت، فلا يستطيع أصحابها إنكارها أو دفع ما ثبت فيها.

فقوله :﴿هَـٰذَا كِتَابُنَا﴾ إشارة إلى الكتاب الذي يعرض على العباد يوم القيامة، وفي إضافته إلى ضمير العظمة تشريف له وإظهار لصدوره عن أمر الله وتدبيره .والإشارة باسم الإشارة

﴿هَـٰذَا﴾ تستحضر الكتاب في مقام المواجهة، فكأنه حاضر بين أيديهم، يعرض عليهم ويقال لهم :هذا سجل أعمالكم الذي أحصينا فيه ما كنتم تفعلون.

ثم يقول سبحانه :﴿يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ .وإسناد النطق إلى الكتاب تصوير بليغ؛ لأن الكتاب في أصله صحيفة مكتوبة، لكنه يوم القيامة يؤدي وظيفة الشاهد الناطق، فيكشف ما اشتمل عليه من الأعمال ولا يترك مجالًا للتكذيب .وليس المراد أن الكتاب يتكلم بالضرورة على هيئة كلام البشر، وإنما أثبت الله له النطق الذي تتحقق به الشهادة وإظهار الحقائق، وكيفية ذلك من أمور الغيب التي لا يجوز تجاوز النص في وصفها.

وقوله :﴿عَلَيْكُمْ﴾ يدل على أن ما في الكتاب حجة على أصحابه، لا حجة لهم يتذرعون بها لدفع المسؤولية .أما قوله :﴿بِالْحَقِّ﴾ فيقرر أن ما يعرضه مطابق للواقع، لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا ظلم في تسجيله ولا تحريف في شهادته.

وهنا يتصل معنى الآية بما ورد في مواضع أخرى من القرآن، إذ يقول الله تعالى :﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ .سورة الكهف : الآية ٤٩ .ففي هذه الآية بيان لما يتضمنه الكتاب من إحاطة بالأعمال، وظهور ما كان الإنسان يظن أنه نسي أو خفي، كما تقرر أن هذا الإحصاء لا ينفصل عن عدل الله سبحانه.

ثم يأتي قوله :﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهو من المواضع التي تحتاج إلى تحرير؛ لأن لفظ الاستنساخ أخص من مجرد الكتابة، ويفيد نقل ما ثبت في أصل أو تسجيله على وجه الحفظ والإثبات.

وقد ذكر المفسرون في توجيهه أن الملائكة تكتب أعمال العباد، وأن ما يكتبونه يكون وفق ما يأمرهم الله به، فيثبت العمل ولا يضيع .وفسر الطبري الاستنساخ هنا بكتابة الأعمال وإثباتها، وذكر أن الملائكة تكتب ما يصدر عن العباد، فيكون ذلك أساسًا لما يعرض عليهم يوم القيامة .(٩)

والذي يظهر من سياق الآية أن المقصود تقرير سبق الإحصاء والإثبات، وأن الكتاب الذي ينطق بالحق ليس سجلًا أنشئ يوم القيامة من غير أصل سابق، بل هو إظهار لما أحصاه الله

وأمر بإثباته .أما تفاصيل العلاقة بين ما في أم الكتاب، وما تكتبه الملائكة، وصحائف الأعمال، فلا ينبغي الجزم بكيفيتها أو حمل لفظ الاستنساخ على صورة فنية مخصوصة لم يدل عليها النص.

وفي قوله :﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعبير بالموصولية مع صلة الفعل، ليشمل ذلك جميع ما يدخل في أعمالهم، فلا يقتصر على نوع دون آخر .كما أن التعبير بالماضي في ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يستحضر امتداد العمل في حياتهم، وأن ما كانوا يمارسونه ويتكرر منهم لم يذهب بانقضاء زمنه، بل بقي محفوظًا ليظهر أثره في الجزاء.

وفي هذا من التربية على مراقبة الله ما يجعل الإنسان يستحضر عاقبة أفعاله قبل صدورها؛ فما يراه الناس عابرًا قد يكون ثابتًا في سجل لا يضيع، وما يظنه صاحبه أمرًا صغيرًا قد يظهر له يوم القيامة على حقيقته .وليس المقصود أن يعيش المؤمن في قلق مجرد، وإنما أن يعيش على بصيرة، يعلم أن عمله محفوظ، وأن رحمة الله وعدله يحيطان بمصيره.

وهكذا تنتقل الآيات من جثو الأمم واستدعائها إلى كتبها، إلى بيان أن تلك الكتب تشهد بالحق، ثم إلى كشف أصل حفظ الأعمال وإحصائها .فالسياق يبني صورة الحساب بناءً متدرجًا :موقف، ثم استدعاء، ثم عرض للكتاب، ثم شهادة، ثم جزاء.

الآية الثلاثون :فوز المؤمنين بدخولهم في رحمة الله

قال الله تعالى :﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣٠ .بعد أن عرض السياق مشهد الأمم وهي جاثية، وبيّن أن كتب الأعمال تنطق بالحق، انتقل إلى تفصيل المصير الذي ينتهي إليه الحساب، فبدأ بذكر أهل الإيمان والعمل الصالح، ليكشف أن عدل الله لا يقف عند إظهار الأعمال والحكم فيها، بل ينتهي بالمؤمنين إلى الرحمة والفوز، وبالمكذبين إلى الخسران والعذاب.

والفاء في قوله :﴿فَأَمَّا﴾ تفيد التفريع والتفصيل، فكأن ما سبق من مشهد الحساب واستحضار الكتب قد أفضى إلى بيان مصير الفريقين .ثم جاء التعبير بالموصول ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جامعًا بين أصل الاعتقاد وثمرته العملية؛ فالإيمان الذي يستقر في القلب

تظهر آثاره في العمل، والعمل الصالح الذي يصدر عن صاحبه إنما يكتسب قيمته في علاقته بالإيمان والإخلاص لله.

ولم يكتف السياق بذكر الإيمان، ولا اقتصر على العمل، بل جمع بينهما؛ لأن الإيمان أصل العمل ومصدر توجيهه، والعمل شاهد على صدق الإيمان وآثاره في حياة صاحبه .وليس في هذا نفي لما يقتضيه فضل الله ورحمته، بل إن العمل الصالح نفسه توفيق من الله، والثواب عليه فضل منه، لا معاوضة يستقل بها العبد عن ربه.

ثم يقول سبحانه :﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ .والتعبير بالفعل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ﴾ يدل على تحقق الجزاء الموعود، أما إضافة الربوبية في ﴿رَبُّهُمْ﴾ ففيها معنى العناية واللطف والتدبير؛ فهو الذي خلقهم وهداهم وأعانهم على الإيمان والعمل الصالح، ثم يتولاهم يوم القيامة ويدخلهم في رحمته.

ولم يقل :في الجنة مباشرة، مع أن الجنة من أعظم مظاهر الرحمة، وإنما جاء التعبير أوسع دلالة بقوله :﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾؛ لأن الرحمة الإلهية تشمل رضوان الله والأمن من عذابه والنجاة من سخطه وما يفيضه على عباده من النعيم .فالجنة ليست مجرد مكان للراحة، بل هي دار الكرامة التي تتجلى فيها رحمة الله بعباده المؤمنين.

وفي هذا التعبير تنبيه إلى أن النجاة لا تتحقق بقوة الإنسان الذاتية ولا باستحقاق مستقل عن فضل الله، وإنما برحمته وتوفيقه، مع ما أمر به من الإيمان والعمل الصالح .وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال :"لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة"، قالوا :ولا أنت يا رسول الله؟ قال :"ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة" .رواه البخاري ومسلم .والحديث يبين أن العمل سبب شرعي للثواب، لكنه لا يستقل بإيجاب دخول الجنة بعيدًا عن فضل الله ورحمته .(١٠)

ثم يختم الله الآية بقوله :﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ .والإشارة إلى دخول الرحمة وما يتضمنه من النجاة والرضوان والنعيم، واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يرفع هذا المصير إلى منزلة عظيمة، ثم جاء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتأكيد اختصاص هذا الوصف بما ذكر، فذلك هو الفوز الذي لا يلتبس بغيره.

ووصفه بـ﴿الْمُبِينُ﴾ أي الظاهر الذي تتجلى حقيقته ولا يخفى قدره؛ لأن الفوز الحقيقي ليس فيما يتنافس فيه الناس في الدنيا من مال وجاه وسلطان، وإنما فيما ينجو به الإنسان من الخسران الأبدي، ويحصل به رضوان الله ورحمته.

وهذه الآية تقابل الآية السابعة والعشرين؛ فقد ذكر هناك خسران المبطلين، وهنا ذكر فوز المؤمنين، وبينهما مشهد الحساب والكتاب الناطق بالحق .فالمصيران ليسا أمرين منفصلين، وإنما هما نتيجة واحدة لعدل الله في عباده :من آمن وأصلح أدخله الله في رحمته، ومن كفر واستكبر ظهرت عليه آثار ما قدم.

الآية الحادية والثلاثون :توبيخ المكذبين على الاستكبار والإجرام

قال الله تعالى :﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣١ .لما بيّن الله سبحانه مصير أهل الإيمان والعمل الصالح، انتقل إلى الفريق المقابل، وهم الذين كفروا، ليكشف أن عذابهم لم يقع من غير إنذار، وأن استحقاقهم للعقوبة لم يكن مبنيًا على غياب الحجة أو انعدام البيان، بل قامت عليهم البينات، وتليت عليهم آيات الله، لكنهم استكبروا عن قبولها، واختاروا الإجرام طريقًا لهم.

وقوله :﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقابل قوله السابق :﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا التقابل يبرز اختلاف المصير باختلاف الموقف من الوحي؛ فهناك إيمان وعمل صالح يقودان إلى الرحمة، وهنا كفر واستكبار يقودان إلى الخسران.

ثم جاء الاستفهام في قوله :﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وهو استفهام تقريري توبيخي، لا يراد به طلب العلم بحقيقة معلومة، وإنما إلزامهم بالإقرار بأن الحجة قد بلغتهم، وأن آيات الله لم تكن غائبة عنهم .وإضافة الآيات إلى ضمير العظمة في ﴿آيَاتِي﴾ تعيدهم إلى مصدر البيان الذي أعرضوا عنه، فكأنهم يواجهون في موقف الحساب بالحجة نفسها التي سمعوها في الدنيا ولم يستجيبوا لها.

واختيار الفعل المبني للمجهول ﴿تُتْلَىٰ﴾ يجعل العناية منصبة على حصول التلاوة وبلوغ الآيات إليهم، لا على شخص التالي، لأن موضع التوبيخ هو موقفهم من الوحي حين وصل

إليهم .كما أن التعبير بالمضارع يستحضر تكرر التلاوة وتجدد الإنذار، فلا تبدو المسألة حادثة عارضة لم تتح لهم فرصة الاستجابة فيها.

ثم يقول سبحانه :﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ .والفاء تفيد ترتيب الاستكبار على تلاوة الآيات، أي إن الآيات جاءت بالبيان، لكنهم لم يقابلوها بالتواضع للحق، بل قابلوا ظهور الحجة بالاستعلاء والإعراض .والاستكبار أعمق من مجرد عدم الاقتناع؛ لأنه يتضمن امتناع النفس عن قبول الحق مع قيام ما يدعو إليه، لما يصاحب ذلك من تعاظم أو اعتداد بالرأي أو نفور من الخضوع لما جاء به الوحي.

والاستكبار في هذا السياق يكشف عن آفة تحول دون الانتفاع بالدليل؛ فقد يكون الحق ظاهرًا، لكن الإنسان لا يستجيب له لأن قبوله يقتضي منه مراجعة ما اعتاده أو ترك ما استقر عليه من باطل .وهنا يظهر أن فساد الموقف ليس دائمًا ناشئًا عن ضعف البرهان، بل قد يكون ناشئًا عن فساد الاستجابة للبرهان.

ثم يختم الله الآية بقوله :﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ .أي :كنتم متصفين بالإجرام، متجاوزين حدود الحق فيما اعتقدتم وقلتم وعملتم .والتعبير بـ﴿قَوْمًا﴾ يدل على أن الإجرام لم يكن فعلًا منفردًا عابرًا، وإنما صار وصفًا غالبًا على جماعتهم من جهة سلوكهم وموقفهم من آيات الله.

والمجرم في أصل اللغة هو الذي يرتكب الجرم، والجرم هو الذنب والتعدي .ووصفهم بالإجرام هنا يجمع بين فساد الاعتقاد وفساد الموقف العملي؛ لأن الكفر لم يبق مجرد تصور ذهني، بل تحول إلى استكبار عن الحق وإعراض عن دلائله.

وفي هذا من العدل الإلهي أن القرآن لم يذكر العقوبة منفصلة عن أسبابها، بل أعاد المكذبين إلى أصل موقفهم :آيات تليت، وبيان وصل، واستكبار وقع، وإجرام استقر؛ ثم جاء الجزاء موافقًا لما اختاروه من طريق.

وهكذا تتصل الآية بما قبلها؛ فبعد أن ذكر دخول المؤمنين في الرحمة، واجه الكافرين بسؤال يكشف سبب حرمانهم منها .وليس الفرق بين الفريقين في أن أحدهما سمع الوحي والآخر لم يسمعه، وإنما في الاستجابة لما سمعوا :أولئك آمنوا وعملوا الصالحات، وهؤلاء استكبروا وكانوا مجرمين.

الآية الثانية والثلاثون :الاستهزاء بالساعة وغياب اليقين بالآخرة

قال الله تعالى :﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣٢ .

بعد أن كشف الله سبحانه عن استكبار المكذبين حين كانت آياته تتلى عليهم، انتقل إلى تصوير موقف آخر من مواقفهم، وهو موقفهم من التذكير بالساعة والبعث؛ فلم يقتصروا على الإعراض عن الآيات، بل قابلوا دعوة المؤمنين إلى التصديق بوعد الله بالاستخفاف والشك، حتى صار أمر القيامة عندهم حديثًا لا يجاوز الظنون والتخمين.

وقوله :﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ يصور تكرر هذا الموقف كلما وُجه إليهم التذكير بالآخرة، وجاء الفعل مبنيًا للمجهول لأن المقصود بيان مضمون القول وموقفهم منه، لا تعيين قائله؛ سواء أكان القائل من المؤمنين الذين يدعونهم إلى الإيمان، أم ممن يبلغهم الوحي وينذرهم بعاقبة التكذيب.

ثم جاء مضمون القول :﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ .والمراد بوعد الله ما أخبر به من البعث والحساب والجزاء، وما وعد به عباده من الثواب والعقاب .ووصف الوعد بأنه حق يفيد ثبوته وصدق وقوعه، فلا يتطرق إليه الخلف، لأن الله لا يخلف وعده، ولا يعجزه إنفاذ ما أخبر به.

أما قوله :﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فهو تأكيد لحقيقة القيامة من جهة ثبوتها، ونفي للشك عن وقوعها في نفس الأمر .وقد جمع التعبير بين إثبات صدق الوعد ونفي الريب عن الساعة، ليكون المعنى محكمًا من جهتين :جهة صدق المخبر سبحانه، وجهة ثبوت الخبر الذي أخبر به.

ثم يحكي الله عنهم جوابهم :﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ .وهذا ليس مجرد إقرار بعدم معرفة موعدها، بل هو في سياق الآية تعبير عن موقفهم من أصل حقيقتها، وإظهار لعدم اعتدادهم بما يقال لهم عنها .فلو كان مرادهم أنهم لا يعلمون وقت وقوعها، لما كان ذلك إنكارًا؛ إذ إن وقتها من الغيب الذي لم يطلع الله عليه أحدًا إلا من شاء .وإنما المقصود أنهم لم يكونوا يصدقون بوقوعها تصديقًا يورث اليقين والاستعداد.

وتأمل التعبير بقوله :﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، فقد أعادوا اسم الساعة في جوابهم، وكأنهم يتعاملون مع القضية التي ذكرت لهم باعتبارها أمرًا مجهولًا لا حقيقة ثابتة له عندهم، وهذا يتجاوز عدم العلم بالكيفية أو الموعد إلى اضطراب التصور نفسه.

ثم قالوا :﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ .و"إن" هنا نافية، أي :ما نظن إلا ظنًا، والمراد أنهم لا يملكون يقينًا في وقوع الساعة، وإنما يتحدثون عن احتمال لا يستند إلى تصديق جازم .وقد جاء هذا التعبير كاشفًا عن مرتبة معرفتهم التي يقرون بها؛ فهم لا يقدمون دليلًا على استحالة البعث، ولا يثبتون علمًا ينقض الخبر الإلهي، وإنما يقررون أن موقفهم لا يتجاوز الظن.

ثم أكدوا ذلك بقوله :﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ .والباء في ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ لتوكيد النفي، واسم الفاعل يدل على تحقق صفة اليقين في النفس، فكأنهم ينفون عن أنفسهم بلوغ مرتبة العلم المطمئن بثبوت الساعة.

وهنا تظهر المقابلة بين خطاب الوحي وموقف المكذبين؛ فالوحي يقرر :﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، وهم يجيبون :﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ .وبين القولين تفاوت عظيم؛ إذ يقابل الخبر الصادق الصادر عن الله تخمينًا بشريًا لا يقوم على برهان، ويقابل اليقين الذي تقتضيه دلائل الوحي شك لا يجاوز حدود الوهم.

وقد حرر الطبري معنى الآية بأن المكذبين كانوا يردون وعد الله بالبعث والحساب، ويقولون إنهم لا يعلمون حقيقة الساعة، ولا يعتقدون وقوعها إلا على سبيل الظن، وليس عندهم يقين بها .(١١) وهذا التفسير يتفق مع سياق المقطع الذي بدأ بإنكار البعث، ثم عرض مطالبتهم بإحياء آبائهم، ثم أثبت ملك الله وقدرته على جمع الخلق، وانتهى بتصوير موقفهم من التذكير بالساعة.

وفي هذا السياق تظهر دلالة مهمة، وهي أن القرآن لا يعالج إنكار القيامة باعتباره خطأ معرفيًا مجردًا، وإنما يكشف أثره في موقف الإنسان من المسؤولية؛ فمن لا يستيقن بالوقوف بين يدي الله يضعف استعداده للمحاسبة، ويهون عليه تجاوز الحدود، ويصبح أكثر قابلية لاتباع الهوى والاستكبار .ولهذا جاء وصفهم بالإجرام في الآية السابقة، ثم أعقبه بيان مقالتهم

في الساعة؛ لأن الإعراض عن الجزاء يزيل من النفس أحد أعظم الموانع من التمادي في الباطل.

ولا يعني ذلك أن كل من لم يبلغ اليقين في مسألة غيبية يكون بالضرورة على الوصف نفسه؛ وإنما الحديث عن هؤلاء المكذبين الذين بلغتهم آيات الله، وأقيمت عليهم الحجة، ثم اتخذوا الشك موقفًا من خبر الله الصادق.

وتلتقي هذه الآية مع قوله الله تعالى في موضع آخر :﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ .سورة الحجرات :الآية ١٥ .

فالإيمان الحق ليس مجرد انتساب باللسان، بل تصديق يثبت في القلب ولا يتزعزع أمام الشبهات، وتظهر آثاره في العمل والاستقامة.

وهكذا ينتهي هذا المقطع بكشف حقيقة الموقف الذي كان وراء إنكار المكذبين للبعث؛ فقد اجتمع لديهم الاستكبار عن آيات الله، والإجرام في السلوك، والتردد في خبر الآخرة، وغياب اليقين بالجزاء .وبذلك يكتمل المشهد الذي بدأ بإثبات ملك الله المطلق، وانتهى ببيان اختلاف الناس أمام ذلك الملك يوم القيامة :فريق آمن واستعد فدخل في الرحمة، وفريق استكبر وشك وجحد فاستحق الخسران.

المراجع

(٧) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٧، عند تفسير قوله :﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .وقد روجع النص الإلكتروني في منصة القرآن الكريم، وفي موقع قرآن بيديا .

(٨) محمد بن أحمد القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٨، عند تفسير قوله :﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، في بيان معنى الجثو وهيئة الجلوس على الركب .

(٩) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٢٩، عند تفسير قوله :﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في بيان كتابة الأعمال وإحصائها.

(١٠) محمد بن إسماعيل البخاري، *الجامع الصحيح*، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت؛ ومسلم بن الحجاج، *الصحيح*، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث أبي هريرة رضي الله عنه في دخول الجنة بفضل الله ورحمته.

(١١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٢، في بيان معنى الظن ونفي اليقين عن منكري الساعة .وقد روجع النص الإلكتروني في تفسير الطبري المنشور بموقع ويكي مصدر .

(١٢) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيات ٣٠-٣٢، في بيان التفصيل بعد الإجمال، ومقابلة مصير المؤمنين بمصير الكافرين، وتحليل اتصال الآيات في السياق .

(١٣) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، *مصحف المدينة النبوية*، رواية حفص عن عاصم، سورة الجاثية، الآيات ٢٧-٣٢، في ضبط النص القرآني وترتيب الآيات.

المقطع العاشر :انكشاف أعمال المكذبين، وإحاطة العذاب بهم، وتحقق وعيد الله فيمن استهزأ بآياته واغتر بالحياة الدنيا

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ سورة الجاثية :الآيات ٣٣-٣٥.

تفسير الآيات وبيان معانيها

الآية الثالثة والثلاثون :ظهور حقيقة الأعمال وإحاطة المكذبين بعاقبة استهزائهم

قال الله تعالى :﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .سورة الجاثية : الآية ٣٣ .لما حكى الله سبحانه عن المكذبين أنهم لم يكونوا مستيقنين بالساعة، وأنهم قابلوا خبرها بالظن والارتياب، نقل السياق إلى المشهد الذي تنكشف فيه عاقبة ذلك الموقف، فلا يبقى الأمر عندهم خبرًا يسمعونه، ولا وعدًا يستبعدونه، بل يصير حقيقة يشاهدونها، وتحيط بهم آثارها؛ فما أنكروه بالأمس صار واقعًا لا يستطيعون دفعه، وما استهزؤوا به أصبح العذاب الذي يحيط بهم.

وقوله :﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ من الظهور بعد الخفاء، أي انكشف لهم يوم القيامة ما لم يكونوا يرون عاقبته في الدنيا، أو ما كانوا يستصغرون شأنه من أعمالهم السيئة .وليس المراد أن أعمالهم كانت مجهولة عند الله ثم ظهرت له، تعالى الله عن ذلك، وإنما الظهور هنا بالنسبة إليهم؛ إذ ينكشف لهم ما تضمنته أعمالهم من قبح، وما ترتب عليها من سوء الجزاء.

وقوله :﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ يحتمل في ظاهره ظهور الأعمال القبيحة نفسها، ويحتمل ظهور جزائها وعاقبتها، والمعنيان متلازمان في مشهد الحساب؛ إذ تنكشف حقيقة العمل، ثم يظهر ما أفضى إليه من الجزاء .وقد عبّر بعض المفسرين عن ذلك بظهور جزاء السيئات، بينما فصّل الطبري ظهور قبائح الأعمال وشرورها عند قراءة صحائفها .وليس بين الوجهين تعارض؛ لأن ظهور قبح العمل يستلزم انكشاف ما استحقه صاحبه من العقوبة .(١٤)

وتأمل إضافة السيئات إلى أعمالهم في قوله :﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، فلم يقل :وبدت لهم العقوبات فحسب، بل ردّهم إلى أعمالهم التي صدرت منهم، ليعلموا أن ما يواجهونه ليس ظلمًا وقع عليهم، ولا عقوبة منفصلة عن أسبابها، وإنما هو أثر ما قدمته أيديهم .وفي ذلك استحضار للمسؤولية الفردية التي قررتها الآيات السابقة، حين دُعي كل إنسان إلى كتابه وقيل له :إنما يجزى بما كان يعمل.

ثم قال :﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .والحَيْق هو نزول الشيء بالإنسان وإحاطته به، ويستعمل في نزول المكروه الذي لا يجد صاحبه سبيلًا إلى دفعه .فليس التعبير بمجرد وقوع العذاب عليهم، بل بإحاطته بهم؛ ليصور انغلاق طرق النجاة، واستيلاء ما أنكروه على مصيرهم.

والموصول في قوله :﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعيد السامع إلى موقفهم السابق من البعث والجزاء؛ فقد كانوا يستهزئون بالساعة، ويستبعدون وقوعها، ويتعاملون مع الإنذار بها على أنه أمر لا يستحق التصديق .فإذا بالعذاب الذي أنكروه يحيط بهم، وتتحول مادة سخريتهم إلى حقيقة واقعة.

وفي اختيار الفعل ﴿حَاقَ﴾ دلالة تتجاوز مجرد نزول العذاب؛ إذ يصور إحاطة الجزاء بأهله، حتى لا يكون لهم منه مهرب .وهذا من أعظم وجوه المقابلة بين حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة :كانوا يتوهمون أن الاستهزاء بالوعيد يبطله، وأن إنكار الحقيقة يزيلها، فإذا بالواقع لا يتغير بإنكارهم، وإنما يتأخر ظهوره إلى اليوم الذي لا ينفع فيه الإنكار.

ويكشف هذا التركيب عن سنة قرآنية متكررة :أن الاستهزاء بالحق لا يغير من حقيقته، وإنما يضيف إلى المكذبين وصفًا من أوصاف الجحود، ثم يأتي يوم تنكشف فيه حقيقة ما استهزؤوا به .وليس في الآية مجرد تصوير للعقوبة، بل إظهار للتناسب بين الجرم والجزاء؛ فقد جعلوا الإنذار موضع سخرية، فأصبحوا هم موضع انكشاف الخزي والعذاب.

الآية الرابعة والثلاثون :نسيان لقاء الله وحرمان المكذبين من النصرة

قال الله تعالى :﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣٤ .بعد أن بيّن الله إحاطة العذاب بالمكذبين، انتقل السياق

إلى بيان سبب معاملتهم بهذه المعاملة، فجاء الخطاب الذي يواجههم بحقيقة موقفهم السابق : أنتم الذين نسيتم لقاء هذا اليوم، وأعرضتم عن الاستعداد له، فكان جزاؤكم أن تُتركوا في العذاب، وتحرموا أسباب الرحمة والنصرة.

وقوله :﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ﴾ امتداد لتصوير مشهد القيامة، وفي البناء للمجهول تركيز على مضمون القول وهيبة المقام، لا على تعيين قائله .وقد جاء اسم الإشارة الزمني ﴿الْيَوْمَ﴾ ليقابل يومهم الذي كانوا ينكرونه في الدنيا؛ فهذا اليوم الذي لم يكونوا يستيقنون به قد حضر، وصاروا يواجهون حكمه مواجهة لا سبيل إلى دفعها.

أما قوله :﴿نَنْسَاكُمْ﴾ فليس المراد به النسيان الذي هو ذهول عن الشيء أو غفلة عنه، فإن الله سبحانه منزه عن ذلك، وإنما المراد نترككم في العذاب ونحرمكم من الرحمة والنجاة، على وجه الجزاء العادل الموافق لإعراضكم السابق .فالمعنى نعاملكم معاملة المتروكين، لا أنكم تغيبون عن علم الله أو تدبيره.

وهذا من الاستعمال العربي الذي يطلق فيه النسيان على الترك والإهمال، ويكون المقصود بيان أثر المعاملة لا إثبات صفة النقص .وقد فسر الطبري ذلك بتركهم في عذاب جهنم، كما فسر نسيانهم السابق بتركهم العمل للقاء الله في ذلك اليوم .(١٥)

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى :﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ .سورة التوبة :الآية ٦٧ .أي أعرضوا عن طاعته وتركوا ما أوجب عليهم من حقه، فجازاهم بأن تركهم من رحمته وتوفيقه، ولم يجعل لهم من أسباب النجاة ما ينفعهم.

وتتجلى دقة المقابلة في قوله :﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾؛ فقد أضيف اليوم إليهم، مع أنهم أنكروه واستهزؤوا به، ليواجهوا حقيقة أن هذا اليوم كان متعلقًا بمصيرهم منذ كانوا في الدنيا، وأن إعراضهم عنه لم يسقط حقه عليهم .كما أن التعبير باللقاء أبلغ من مجرد ذكر اليوم؛ لأن اللقاء يتضمن الحضور والمواجهة، وفيه استحضار للوقوف بين يدي الله والحساب على الأعمال.

وليس نسيانهم للقاء مجرد عدم تذكر عابر، وإنما هو نسيان عملي تمثل في ترك الإيمان باليوم الآخر، وعدم إعداد النفس له، والانشغال بالدنيا حتى صارت الآخرة خارج دائرة الاهتمام

والتأثير في السلوك .وهذا هو الذي يكشفه السياق؛ إذ قرن نسيان اللقاء باتخاذ الآيات هزوًا والاغترار بالحياة الدنيا في الآية التالية.

ثم قال :﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ .والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويستقر فيه، واختياره هنا يرسم مصيرًا نهائيًا لا مجرد عقوبة عارضة؛ فقد كان الإنسان في الدنيا يأوي إلى ما يطمئنه من مال أو أهل أو سلطان، أما هؤلاء فقد صار مأواهم النار، وهي نهاية الطريق الذي اختاروه بإعراضهم واستكبارهم.

ثم ختم بقوله :﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .والنفي هنا شامل لأسباب النصرة التي كانوا يرجونها أو يتوهمونها؛ فلا آلهتهم المزعومة تنصرهم، ولا من اتبعوهم من أهل الباطل يملكون دفع العذاب عنهم، ولا يستطيع أحد أن يعترض على حكم الله أو يمنع نفاذه.

وجاءت كلمة ﴿مِنْ﴾ في سياق النفي لتأكيد استغراقه، أي لا يوجد لكم أي ناصر ينقذكم من هذا المصير .وهذا يردّهم إلى الحقيقة التي أغفلوها في الدنيا :أن الملك لله وحده، وأن الأمر كله إليه، وأن الأسباب التي اغتروا بها لا تستقل بحماية أصحابها من قضائه.

وفي هذا دليل على أن نسيان الآخرة ليس أمرًا نظريًا محدود الأثر، بل له عاقبة تمس حقيقة المصير؛ فمن أعرض عن لقاء الله في الدنيا، ولم يجعل له في حسابه موضعًا، عرّض نفسه لأن يواجه يوم القيامة عاقبة ذلك الإعراض، حيث لا تنفعه قوة ولا شفاعة بغير إذن الله ولا نصرة من مخلوق.

الآية الخامسة والثلاثون :أسباب الخسران وانقطاع الرجاء من النجاة

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣٥ .بعد أن عرضت الآية السابقة مصير المكذبين، وبيّنت أنهم تُركوا في العذاب وحُرموا الناصر، جاءت هذه الآية لتكشف عن العلة التي استحقوا بها ذلك المصير؛ فلم يكن ما حلّ بهم أمرًا مجهول السبب، ولا عقوبة مجردة عن العمل، وإنما كان نتيجة موقفين متلازمين :الاستهزاء بآيات الله، والاغترار بالحياة الدنيا.

فقوله :﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ﴾ إشارة إلى ما تقدم من العذاب والحرمان وانقطاع النصرة، والباء للسببية، أي إن هذا الجزاء الذي تواجهونه إنما كان بسبب ما ارتكبتموه من الكفر والاستهزاء والإعراض .وفي اسم الإشارة جمع لما سبق تفصيله في الآيتين؛ من ظهور السيئات، وإحاطة العذاب، والترك في النار، وانتفاء الناصرين.

ثم قال :﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ .والاتخاذ هنا يدل على اتخاذ موقف مستقر من آيات الله، لا مجرد وقوع استهزاء عابر، فقد جعلوا ما كان ينبغي أن يكون موضع تصديق وتعظيم واهتداء مادة للسخرية والاستخفاف .والآيات تشمل ما تلي عليهم من القرآن، وما اشتمل عليه من البراهين والأحكام والأخبار، وفي مقدمتها أخبار البعث والجزاء التي كان سياق المقطع يعالج موقفهم منها.

وتأمل التعبير بقوله :﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ فلم ينسبوا الاستهزاء إلى مجرد أقوال بشرية أو آراء قابلة للنقاش، بل اتخذوا آيات الله نفسها موضعًا للهزء، وفي ذلك بيان لعظم الجرم؛ لأن الاستهزاء بالوحي ليس مجرد مخالفة لحكم جزئي، وإنما هو استخفاف بالمصدر الذي جاءهم بالهداية، ورفض للحجة التي أقامها الله عليهم.

والهزء في أصل معناه يتضمن السخرية والاستخفاف، وقد يكون بالقول أو الفعل أو الموقف الذي يحمل معنى التحقير .والمقصود هنا أنهم لم يقفوا عند حد عدم التصديق، بل تجاوزوه إلى الاستهزاء بالآيات وما تدل عليه، فاجتمع في موقفهم الجحود وسوء الأدب مع الوحي.

ثم ذكر السبب الآخر بقوله :﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ .والغَرور هو الخداع الذي يحمل الإنسان على تصور الأمر على غير حقيقته، حتى يطمئن إلى ما لا ينبغي الاطمئنان إليه .وإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا تصوير لما في زينتها ومتاعها من أسباب الاغترار، حين ينشغل الإنسان بظاهرها، ويغفل عن حقيقتها المحدودة، ويحسب أن ما بين يديه من مال أو سلطان أو لذة يغنيه عن الحساب.

وليس في الآية ذم للحياة الدنيا من حيث هي خلق لله ودار ابتلاء، وإنما الذم لتعلق القلب بها على وجه يصرفه عن الحق والآخرة .فالدنيا في أصلها ميدان للعمل، وموضع للابتلاء، وطريق إلى الآخرة لمن أحسن استعمالها، لكنها تصبح مصدر غرور حين تتحول من وسيلة

إلى غاية، ومن نعمة يستعان بها على الطاعة إلى حجاب يحول دون الإيمان والاستعداد للقاء الله.

وقد جمع السياق بين الاستهزاء والاغترار؛ لأن الأول موقف من الوحي، والثاني موقف من الحياة، وبينهما صلة وثيقة :فمن عظمت الدنيا في قلبه، واستولى حبها على نظره، ثقل عليه قبول ما يحد من شهواته أو يذكره بالمسؤولية، وقد ينتهي به الأمر إلى الاستخفاف بالوحي الذي يدعوه إلى ما وراء متاعه العاجل.

ومن هنا لا ينبغي فهم التغرير بالحياة الدنيا على أنه مجرد الاستمتاع بنعمها، بل هو انخداع بظاهرها حتى ينسي الإنسان غايته ومآله .وهذا هو المعنى الذي ينسجم مع سياق السورة؛ فقد عرضت من قبل تسخير الله ما في السماوات والأرض للإنسان، ودعته إلى الشكر، ثم حذرته من اتباع الهوى، وأنكرت على المكذبين حصر الحياة في الدنيا وإنكار البعث .فالمشكلة ليست في الانتفاع بالدنيا، وإنما في جعلها بديلًا عن الآخرة، وإنكار ما وراءها من حساب وجزاء.

ثم جاء قوله :﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ بالفاء الدالة على ترتب النتيجة على ما سبق؛ أي فبسبب اتخاذهم الآيات هزوًا واغترارهم بالحياة الدنيا، كان مآلهم اليوم أنهم لا يخرجون من النار ، وقد وقع في التعبير انتقال من خطابهم في قوله :﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ و﴿غَرَّتْكُمُ﴾ إلى الغيبة في قوله :﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ .وهذا الالتفات يضعهم أمام حكم نهائي يُعلن في شأنهم، بعد أن واجههم بالسبب الذي استحقوا به العقوبة .فالخطاب السابق توبيخ ومواجهة، ثم انتقل السياق إلى تقرير المصير والحكم الذي لا يتبدل.

والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد إلى النار، المذكورة في الآية السابقة في قوله :﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾، وهذا الربط يمنح الآيتين اتصالًا محكمًا؛ إذ لم يترك السياق مجالًا للالتباس في مرجع الضمير، ولا في حقيقة المآل الذي انتهوا إليه.

وقوله :﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العَتْب، وهو ما يكون عند وجود موجب للمراجعة والرضا بعد السخط، ويقال :استعتب فلان إذا طلب منه أن يزيل ما أوجب العتب، أو طلب

إرضاء من غضب عليه .والمعنى أنهم لا يُطلب منهم استرضاء الله بعمل جديد، ولا يُمهلون للرجوع إلى الدنيا حتى يصلحوا ما أفسدوا؛ فقد انتهى زمن التكليف، وجاء زمن الجزاء.

وقد فسر المفسرون ذلك بأنهم لا يُطلب منهم الرجوع إلى الطاعة، ولا تقبل منهم محاولة استرضاء بعد فوات وقت العمل، وهو معنى ينسجم مع سياق الآيات التي قررت أن كل أمة تُدعى إلى كتابها، وأن الناس يجزون بما كانوا يعملون .(١٦)

وليس معنى ذلك أن التوبة في الدنيا غير مقبولة، بل إن الآية تتحدث عن انقطاع زمن التوبة الاختيارية بعد قيام الساعة؛ فالدنيا دار عمل وتوبة وإنابة، أما الآخرة فدار حساب وجزاء .

ويظهر من نظم الآية أن العلة جاءت في شقين متكاملين :الاستهزاء بآيات الله من جهة، والاغترار بالحياة الدنيا من جهة أخرى؛ فالأول إفساد لموقف الإنسان من الهداية، والثاني إفساد لموقفه من المصير .وباجتماعهما ينقطع عنه طريق الاستجابة :لا يقبل الوحي الذي يهديه، ولا يستحضر الآخرة التي تحمله على الاستعداد، فيعيش للدنيا وحدها، ثم يفاجأ بأن الدنيا التي اغتر بها قد انتهت، وأن الآخرة التي أنكرها أصبحت حقيقة لا مهرب منها.

وهكذا تكتمل الحجة في هذا المقطع؛ فقد بدأت الآيات بظهور سوء الأعمال، ثم بإحاطة العذاب بالمكذبين، ثم ببيان أنهم عوملوا بما يناسب إعراضهم عن لقاء الله، وانتهت بتحديد السببين الجامعين لهذا المصير :الاستخفاف بآيات الله والانخداع بمتاع الدنيا.

وفي هذا تحذير عظيم من أن تصبح زينة الحياة الدنيا حجابًا يحول بين الإنسان وبين إدراك غايته .كما يقرر المقطع أن للإنسان مهلة محدودة، وأن الاستعداد للقاء الله لا يكون بعد ظهور الجزاء، وإنما يكون في دار العمل قبل أن يغلق باب الاختيار.

المراجع

(١٤) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٣، عند قوله :﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ .وقد روجع النص الإلكتروني في منصة القرآن الكريم بجامعة الملك سعود، وكذلك منصة القرآن الكريم .

(١٥) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٤، عند قوله :﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾، في تفسير النسيان بمعنى الترك والخذلان وبيان المقابلة بين إعراضهم عن لقاء الله وجزائهم.

(١٦) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٥، عند قوله :﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ .ومحمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيات ٣٣-٣٥، في بيان اتصال الجزاء بأسبابه ودلالة الاستهزاء والاغترار بالحياة الدنيا .وقد أمكن مراجعة تفسير الطبري في النص الإلكتروني المنشور بسورة الجاثية.

المقطع الحادي عشر والأخير :حمد الله وربوبيته المطلقة، وانفراده بالكبرياء والعزة والحكمة

الآيتان :٣٦-٣٧

قال الله تعالى :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ .

تفسير الآيتين وتحليلهما

الآية السادسة والثلاثون :اختصاص الله بالحمد وربوبيته الشاملة

قال الله تعالى :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .سورة الجاثية : الآية ٣٦ .

جاءت هذه الآية خاتمةً لما سبق من عرض دلائل الربوبية، وإقامة الحجة على المكذبين، وبيان أحوال الخلق يوم القيامة، وتفريق الله بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وإظهار عدله في الجزاء، فبعد أن انتهت السورة إلى تقرير المصير الذي ينتظر الفريقين، أعادت القلوب إلى الأصل الذي تنتظم به جميع تلك المعاني :أن الحمد كله لله، فهو الخالق المدبر، والمالك المتصرف، والمستحق وحده للحمد والثناء والعبادة.

والفاء في قوله :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ تفيد التفريع على ما تقدم، فكأن مجموع ما عرضته السورة من دلائل الخلق والتسخير والهداية، ومن مشاهد الحساب والجزاء، يقود إلى هذه النتيجة الجامعة :فلله الحمد .وقد أشار ابن عاشور إلى هذه الصلة، فربط ختام السورة بما تضمنته من نعم الله وإرشاده وتسخيره وإقامة نظام العدل والجزاء، فكان ذلك كله موجبًا لقصر الحمد عليه سبحانه.(١٨)

والتقديم في قوله :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ يفيد الاختصاص والاستحقاق، فليس الحمد الحقيقي المستجمع لمعاني الثناء والتعظيم إلا لله، وإن حمد الناس بعضهم بعضًا على إحسان أو جميل، فإن ذلك الحمد الجزئي لا يخرج عن أن يكون إحسانهم وفضلهم وقدرتهم من خلق الله وتقديره .فالحمد في أصله وتمامه راجع إليه سبحانه، إذ هو المنعم ابتداءً، والمتفضل على عباده، والمستحق أن يُعبد ويُشكر.

ولم يأت التعبير بقوله :الحمد لله فحسب، بل قدم الجار والمجرور فقال :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، لتتجه العناية إلى صاحب الاستحقاق قبل ذكر الحمد نفسه، وليكون في ذلك تقرير لانفراد الله بالكمال الذي يوجب الحمد، وإبطال لما يتوهمه المشركون من استحقاق معبوداتهم شيئًا من العبادة أو التعظيم.

ثم جاء قوله :﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعليلًا لاستحقاقه الحمد، وبيانًا لسعة ربوبيته .فالرب هو المالك والسيد والمدبر والمربي لخلقه، وهذه المعاني متكاملة في حق الله سبحانه؛ فهو الذي خلق، وهو الذي يملك، وهو الذي يدبر شؤون خلقه، ويصرفهم بحكمته وقدرته.

وتكرار لفظ ﴿رَبِّ﴾ في قوله :﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ ليس تكرارًا خاليًا من الدلالة، بل فيه تفصيل لمظاهر الربوبية، وإبراز لشمولها؛ فالسماوات بعظم خلقها واتساعها، والأرض بما اشتملت عليه من أنواع المخلوقات ومنافعها، كل ذلك داخل في ملك الله وتدبيره .ثم جاء قوله :﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليجمع ما تقدم ويفتح الدلالة على عموم الربوبية لجميع العوالم والمخلوقات، فلا يختص سلطان الله بعالم دون عالم، ولا يخرج عن ملكه شيء مما في الوجود.

وقد ذكر الطبري في تفسير الآية أن الله هو مالك السماوات والأرض، ومالك جميع أصناف الخلق، وأن النعم كلها منه لا من الآلهة التي اتخذها المشركون من دونه.(١٩) وهذا المعنى يرد على أصل الشرك الذي قامت السورة على إبطاله؛ إذ كيف يستحق العبادة من لا يخلق ولا يملك ولا يدبر، مع أن الخلق والملك والتدبير لله وحده؟

وفي نظم الآية انتقال من تقرير استحقاق الحمد إلى بيان علة هذا الاستحقاق، ثم إلى توسيع دائرة النظر من السماوات والأرض إلى العالمين جميعًا .وهذا التدرج يجعل الخاتمة متناسبة مع افتتاح السورة الذي قرر أن تنزيل الكتاب صادر عن الله العزيز الحكيم؛ فكما أن الوحي منه، فإن الخلق والملك والتدبير له، وبذلك تجتمع حجة الرسالة وحجة الربوبية في بناء واحد.

ولا يفوتنا هنا أن نلحظ الصلة بين هذه الآية والآية الثانية عشرة من السورة، حين ذكر الله تسخير البحر وما فيه من منافع للناس، ثم دعا إلى ابتغاء فضله والشكر؛ فذلك التسخير مظهر

من مظاهر الربوبية، وهذا الحمد هو مقتضى الاعتراف بها .كما أن ما جاء في الآيات السابقة من الفصل بين أهل الإيمان وأهل الإجرام، وإدخال المؤمنين في رحمة الله، وإقامة الجزاء على العدل، إنما يصدر عن الرب الذي له الخلق والأمر، فلا يكون حكمه إلا قائمًا على الحكمة والعدل.

ومن هنا يظهر أن الحمد في ختام السورة ليس مجرد ثناء يُختم به الكلام، بل هو النتيجة العقدية والعبادية التي تفضي إليها جميع أدلتها :فمن عرف ربه بخلقه وتسخيره، وآمن بوحيه، وأيقن بحسابه، علم أن الحمد له وحده، وأن العبادة لا تصرف إلا إليه.

الآية السابعة والثلاثون :انفراد الله بالكبرياء والعزة والحكمة

قال الله تعالى :﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .سورة الجاثية : الآية ٣٧ .

لما قررت الآية السابقة أن الحمد لله رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، جاءت هذه الآية لتقرر لازم تلك الربوبية، وهو انفراده بالكبرياء والعظمة والسلطان، وأنه لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه؛ فله الحمد لأنه الرب، وله الكبرياء لأنه العظيم الذي لا يعلوه شيء، ولا يخرج عن سلطانه شيء.

وتقديم قوله :﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ على متعلق الجار والمجرور يفيد الاختصاص، كما تقدم في قوله :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾؛ فكما اختص سبحانه باستحقاق الحمد، اختص بالكبرياء التي هي كمال العظمة والجلال والعلو، ولا يليق أن ينازعه فيها مخلوق.

والكبرياء في أصل معناها تدور على العظمة والرفعة والسلطان، وهي في حق الله صفة كمال تليق بجلاله، لا تشبه كبرياء المخلوقين القائمة على التوهم أو الاستعلاء بغير حق .فالله سبحانه عظيم بذاته وصفاته وأفعاله، مستغنٍ عن خلقه، وكل خلقه مفتقرون إليه، خاضعون لسلطانه، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا إلا بما شاء.

وقوله :﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يبين شمول ظهور آثار كبريائه وسلطانه، فما في السماوات من ملائكة ومخلوقات، وما في الأرض من إنس وجن وسائر الأحياء والجمادات، كله داخل في ملكه وتدبيره، لا يمتنع عليه شيء، ولا يخرج عن قهره وسلطانه أحد .وليس المراد

أن الكبرياء صفة محدودة بمكان، وإنما المعنى أن سلطان عظمته نافذ في السماوات والأرض، وآثار ملكه ظاهرة في جميع أرجائهما.

وقد فسر الطبري الكبرياء بالعظمة والسلطان، وبيّن أن الله هو القاهر الذي لا يقهره شيء.(٢٠) وذكر ابن كثير عن مجاهد تفسير الكبرياء بالسلطان، ثم قرر أن كل شيء خاضع لله فقير إليه.(٢١) وهذه المعاني متقاربة، وليست أقوالًا متعارضة؛ لأن العظمة تقتضي كمال السلطان، والسلطان التام مظهر من مظاهر العظمة الإلهية.

ويؤكد هذا المعنى ما ثبت في الحديث القدسي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه :"العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته" .رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم ٢٦٢٠.(٢٢) والمقصود إثبات اختصاص الله بالكبرياء والعظمة، وضرب المثل بما يدل على انفراده بهما، لا تشبيه صفاته بصفات المخلوقين .وفي الحديث تحذير من التكبر والتعاظم على عباد الله، فإن العبد لا يليق به أن يتصف بالاستعلاء الذي يناقض حقيقة عبوديته وافتقاره إلى ربه.

ثم ختمت السورة بقوله :﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وهذان الاسمان يجمعان معنيين عظيمين في تدبير الله لخلقه وحكمه بينهم.

فالعزيز هو الذي لا يُغلب، ولا يمتنع عليه مطلوب، ولا يعجزه شيء، وهو القوي القاهر الذي يخضع له كل شيء .وقد ظهر أثر هذه العزة في السورة من أولها إلى آخرها؛ فهو الذي أنزل الكتاب، وخلق السماوات والأرض، وسخر ما في الكون، وأقام الحجة على المكذبين، وأذل أهل الإجرام يوم القيامة، وأدخل المؤمنين في رحمته .فلا يستطيع أحد أن يرد حكمه أو يعطل أمره أو يفر من قضائه.

وأما الحكيم فهو الذي يضع الأمور مواضعها، ويجري أحكامه وتدبيره على مقتضى العلم والحكمة، فلا يخلق عبثًا، ولا يأمر بغير حكمة، ولا يجازي أحدًا بغير عدل .وقد تكرر في السورة ذكر الحكمة في سياقات متعددة، منها افتتاحها بوصف الله بالعزة والحكمة، ومنها بيان أن اختلاف الناس بعد مجيء العلم لم يكن عن خفاء الحق، وإنما كان بغيًا بينهم، ومنها إقامة

التفرقة بين أهل الإيمان والعمل الصالح وأهل السيئات، ومنها بيان المصير الذي ينتهي إليه كل فريق.

والجمع بين العزة والحكمة بالغ الدلالة؛ فالعزة وحدها تدل على كمال القدرة والقهر، والحكمة تدل على أن هذه القدرة لا تجري عبثًا ولا ظلمًا، وإنما تتعلق أفعال الله وأحكامه بالعلم والحكمة والعدل .فهو سبحانه عزيز لا يُغلب، حكيم لا يظلم، قادر لا يعجزه شيء، ولا يخرج تدبيره عن مقتضى الحكمة.

ومن دقة هذا الختام أن السورة لم تنته بذكر العذاب الذي توعد به المكذبين، مع أن جانب الوعيد قد استغرق مساحة واسعة من مقاطعها الأخيرة، بل انتهت بتقرير صفات الله التي يقوم عليها ذلك الوعيد والوعد جميعًا .فالعذاب ليس انتقامًا مجردًا، والنعيم ليس فضلًا منفصلًا عن الحكمة؛ بل كلاهما داخل في حكم الرب العزيز الحكيم.

وهنا تلتقي خاتمة السورة بمطلعها التقاءً محكمًا؛ فقد افتتحت السورة بقول الله تعالى :﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢ .ثم اختتمت بقوله :﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٣٧ .فبدأت بإثبات أن الكتاب تنزيل من العزيز الحكيم، وانتهت بتقرير أن الكبرياء والحمد له، وأنه العزيز الحكيم؛ ليكون هذا التكرار المحكم إطارًا يضم موضوعات السورة كلها.

فالوحي الذي جاء به القرآن صادر عن العزيز الحكيم، والكون الذي أقام الله فيه براهين ربوبيته مملوك له، والعباد الذين خوطبوا بالوحي مسؤولون أمامه، واليوم الآخر الذي أنكروا وقوعه واقع بأمره، والحكم الذي يفصل بينهم حكم العزيز الحكيم.

وبذلك لا تكون خاتمة السورة مجرد ثناء منفصل عن موضوعاتها، بل تكون إظهارًا للحقيقة التي تفسر جميع ما تقدم :أن الله وحده المستحق للحمد، وأنه رب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم الذي لا يظلم ولا يضع شيئًا إلا في موضعه.

المراجع

(١٨) محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة الجاثية، الآيتان ٣٦-٣٧ .النص متاح للمراجعة إلكترونيًا في المكتبة التفسيرية .وقد استفدت منه في بيان مناسبة الفاء في قوله :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ لما سبق في السورة، وصلتها بما تضمنته من دلائل الربوبية والإنعام والعدل والجزاء .

(١٩) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٦، عند قوله :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .النص متاح للمراجعة في موسوعة القرآن الكريم .

(٢٠) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٧، عند قوله :﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

(٢١) إسماعيل بن عمر بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة الجاثية، الآية ٣٧، في تفسير الكبرياء بالعظمة والسلطان، وبيان معنى العزة والحكمة .

(٢٢) مسلم بن الحجاج، *صحيح مسلم*، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، رقم ٢٦٢٠.

التفسير المستقل لسورة الجاثية

المرحلة الختامية :الوحدة الموضوعية والنظم، والمقاصد والهدايات الكلية، والخاتمة التفسيرية الجامعة

بعد اكتمال التفسير التفصيلي لآيات سورة الجاثية، من الآية الأولى إلى الآية السابعة والثلاثين، ننتقل إلى النظر في السورة بوصفها بناءً قرآنيًا متكاملًا، تتساند مقاطعه وتتدرج حججه، وتنتظم موضوعاته حول حقيقة مركزية هي :**إفراد الله بالربوبية والعبادة والحكم، وإثبات صدق الوحي والبعث والجزاء، وكشف عاقبة الإعراض عن الحق واتباع الهوى والاستكبار عن آيات الله.**

وهذه المرحلة ليست إعادة لتفسير الآيات، وإنما هي استخلاص للصورة الكلية التي انتهى إليها التفسير التفصيلي، وربطٌ بين دلالات السورة الجزئية ومقصدها الجامع.

أولًا :الوحدة الموضوعية والنظم في سورة الجاثية

المحور المركزي للسورة

تدور سورة الجاثية حول إقامة الحجة على الإنسان في أصل إيمانه ومصيره، وتحريره من سلطان الهوى والتقليد والاستكبار، وردّه إلى حقيقة العبودية لله الذي أنزل الكتاب بالحق، وأقام في الكون دلائل قدرته، وجعل للإنسان مسؤولية عن عمله، ثم يجمع الخلق يوم القيامة للفصل بينهم بالعدل.

فالسورة لا تعالج قضية البعث وحدها، ولا تقتصر على إثبات مصدر القرآن، ولا تجعل تسخير الكون غاية مستقلة عن سائر موضوعاتها؛ بل تجمع هذه القضايا في بناء واحد، قوامه أن الله سبحانه هو الخالق المدبر، وأن الوحي هدايته إلى عباده، وأن الإنسان مسؤول عن موقفه منه، وأن الجزاء الأخروي هو المآل الذي تنكشف فيه حقائق المواقف والأعمال.

ومن هنا كان اسم السورة "الجاثية" متصلًا بمشهدها الختامي؛ إذ تنتهي الحركة التي بدأت بعرض دلائل الوحي والخلق والقدرة إلى مشهد الخضوع العام أمام الحكم الإلهي، حين تجثو كل أمة، وتدعى إلى كتابها، وتظهر حقيقة ما قدمت.

التدرج في بناء الحجة

يتحرك بناء السورة في مسار متدرج، لا يقوم على تجاور موضوعات متفرقة، بل على انتقال كل قضية إلى ما يترتب عليها:

١ .تأسيس مرجعية الوحي وإقامة دلائل الحق :الآيات ١-١١.

تبدأ السورة بالحروف المقطعة، ثم تقرر أن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، وتلفت النظر إلى آيات السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزق، وتصريف الرياح .ثم تنتقل إلى موقف الإنسان من هذه الدلائل، فتصف حال من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر على الاستكبار والإعراض والاستهزاء.

وهنا تتأسس المفارقة الأولى في السورة :فالآيات قائمة، والحجة ظاهرة، ولكن ظهور الدليل لا يستلزم قبول الحق ممن استولى عليه الكبر وأعرض عن الهدى.

٢ .الانتقال من دلائل الخلق إلى مقتضى الشكر والطاعة :الآيات ١٢-١٤.

بعد عرض دلائل القدرة، يبين الله ما أنعم به على الإنسان من تسخير البحر والفلك، وتسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه .وليس المقصود مجرد تعداد المنافع، بل توجيه الإنسان إلى إدراك المنعم، وأن تكون معرفته بالنعم طريقًا إلى الشكر والخضوع، لا سببًا للغفلة والاغترار.

ثم يرد الخطاب إلى المسؤولية الفردية، فيقرر أن كل إنسان يجازى بعمله، وأن اختلاف الناس في مواقفهم لا يضيع عند الله.

٣ .من تجربة بني إسرائيل إلى اختصاص الرسالة بالشريعة :الآيات ١٥-٢٠.

يعرض السياق تجربة بني إسرائيل وما أوتوه من الكتاب والحكم والنبوة والبينات، ثم يذكر اختلافهم من بعد ما جاءهم العلم، بغيا بينهم .وهذه التجربة ليست سردًا تاريخيًا منفصلًا، بل تمهيد للتحذير من تكرار الانحراف نفسه بعد قيام الحجة.

وعلى إثر ذلك يأتي الأمر باتباع الشريعة التي جعلها الله للنبي ﷺ، والنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون .ثم يبين أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون.

فالعلم بالحق لا يكفي وحده ما لم يصحبه إخلاص وانقياد، وقد يكون العلم نفسه موضع ابتلاء حين تحمله النفس على البغي والمخاصمة.

٤ .تقرير عدل الجزاء وكشف أثر الهوى :الآيات ٢١-٢٣.

بعد تقرير مرجعية الشريعة والهداية، ينكر السياق على المجرمين ظنهم أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم يقرر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

ثم يكشف عن أصل عميق من أصول الانحراف، وهو اتخاذ الهوى إلهًا، وإضلال الله صاحبه على علم، وختمه على سمعه وقلبه، وجعل الغشاوة على بصره.

وبذلك ينتقل السياق من بيان عدل الله في الجزاء إلى بيان أحد أسباب استحقاق العقوبة : أن يستبد الإنسان بهواه، ويعرض عن هداية الله مع قيام ما يرشده إلى الحق.

٥ .إقامة الحجة على منكري البعث :الآيات ٢٤-٢٦.

تعرض السورة مقالة من يحصر الحياة في الدنيا، وينسب الموت والحياة إلى مرور الدهر، وينكر البعث بعد الموت .ثم تقابل هذا الإنكار بتقرير سلطان الله في الإحياء والإماتة، وأنه يجمع الناس إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه.

وهكذا لا يترك السياق إنكار الآخرة دعوى مجردة، بل يرده إلى حقيقة الربوبية والقدرة الإلهية.

٦ .انكشاف الملك المطلق والحكم الأخروي :الآيات ٢٧-٣٥.

تتسع الصورة من تقرير قدرة الله على البعث إلى ملكه المطلق للسماوات والأرض، ثم ينتقل الخطاب إلى مشهد قيام الساعة، وجثو الأمم، ودعوة كل أمة إلى كتابها، وظهور الأعمال والجزاء.

وتتجلى في هذا المقطع نتيجة جميع المواقف السابقة :من آمن بالوحي وأيقن بالآخرة، ومن استكبر واستهزأ واتبع هواه، لا يستويان عند الله، ولا يضيع عمل أحد منهما.

٧ .ختام السورة بالحمد والكبرياء :الآيتان ٣٦-٣٧.

تختم السورة بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

وهذا الختام يعيد جميع قضايا السورة إلى أصلها :فالذي أنزل الكتاب، وسخر الكون، وأحيا وأمات، ويجمع الخلق، ويحكم بينهم، هو وحده المستحق للحمد، المتفرد بالكبرياء والعزة والحكمة.

ترابط المطلع بالخاتمة

من أبرز وجوه إحكام السورة أن مطلعها وخاتمتها يحيط أحدهما بالآخر إحاطة المعنى بأدلته ونتائجه.

ففي المطلع يقول الله تعالى :﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .سورة الجاثية :الآية ٢ .

وفي الختام يقول الله تعالى :﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . سورة الجاثية :الآية ٣٧.

فقد افتتحت السورة بإثبات مصدر الكتاب وصفتي العزة والحكمة لمن أنزله، واختتمت بإثبات الكبرياء والعزة والحكمة لرب العالمين .وبين المطلع والخاتمة عرضت دلائل ربوبيته، وآيات قدرته، وأحكامه في خلقه، ومصير من آمن بكتابه ومن أعرض عنه.

وهذا التناسب ليس مجرد تشابه لفظي بين أول السورة وآخرها، بل هو اتصال في القضية والمعنى؛ فالذي أنزل الكتاب هو صاحب الملك، والذي أقام الحجة هو الذي يفصل بين عباده، والذي أخبر عن البعث هو الذي يملك تحقيقه، والذي حكم بالجزاء هو العزيز الحكيم.

وتظهر دلالة هذا البناء في أن السورة لا تنتهي بمشهد العقوبة وحده، بل ترفع النظر من مشاهد الحساب إلى مقام الحمد والكبرياء؛ ليعلم الإنسان أن جميع ما مر به من خلق وتسخير ووحي وابتلاء وحساب إنما يجري تحت سلطان الربوبية الإلهية وحكمتها.

التناسب بين المقاطع وتكاملها

يتضح انتظام السورة من خلال العلاقات التي تصل مقاطعها:

- العلاقة بين الوحي والكون :فالكتاب المنزل من الله تقابله آياته المبثوثة في السماوات والأرض، وكلاهما يدل على الحق ويهدي إليه.

- العلاقة بين النعمة والتكليف :فتسخير الكون للإنسان يستلزم شكر المنعم، ويضع الإنسان أمام مسؤولية استعمال النعمة فيما يرضي الله.
- العلاقة بين العلم والعمل :فتجربة بني إسرائيل تبين أن العلم لا يمنع الاختلاف إذا دخل البغي والهوى في موقف الإنسان من الحق.
- العلاقة بين الشريعة والهوى :فالأمر باتباع الشريعة يأتي في مقابلة اتباع الأهواء، ليقرر أن الهداية لا تستمد من الرغبات المتقلبة.
- العلاقة بين المسؤولية والجزاء :فإثبات اختلاف أعمال الناس يقتضي اختلاف عاقبتهم، وينفي التسوية بين المحسن والمسيء.
- العلاقة بين إنكار البعث وظهور الملك :فحين ينكر المكذبون الإحياء بعد الموت، يقرر السياق ملك الله للسماوات والأرض وقدرته على جمع الخلق.
- العلاقة بين الأعمال والكتاب :فمشهد دعوة الأمم إلى كتبها يكشف أن الحياة لم تكن مجالًا للعبث، وأن كل موقف وعمل محفوظ ومحصى.

وهكذا تتوالد المعاني في السورة؛ فكل مقطع يمهد لما بعده، ولا تنفصل قضايا العقيدة عن قضايا السلوك، ولا تنفصل دلائل القدرة عن مسؤولية الإنسان، ولا ينفصل الوحي عن الحساب.

التقابل والتكرار وأثرهما الدلالي

من أبرز السمات النظمية في السورة قيام المعاني على تقابلات تكشف حقيقة المواقف الإنسانية.

فهي تقابل بين المؤمنين والمجرمين، وبين المحسنين والمسيئين، وبين من يستمع إلى آيات الله ثم يستكبر عنها، ومن يتخذها هداية وبصائر، وبين من يتبع الشريعة ومن يتبع الهوى، وبين الموقنين بالآخرة والمنكرين لها.

وهذه المقابلات ليست مجرد أسلوب بياني، وإنما هي جزء من إقامة الحجة؛ إذ لا يتضح عدل الجزاء إلا بتمييز الأعمال والمواقف، ولا يظهر أثر الهداية إلا بمقابلتها بالإعراض، ولا تنكشف حقيقة اليقين إلا بعرضها أمام إنكار البعث.

ومن ذلك تكرار الحديث عن الآيات، والعلم، واليقين، والكتاب، والعمل، والجزاء .وهذه الألفاظ تتوزع في السورة لتشكل شبكة من الروابط الدلالية:

فالآيات تدعو إلى النظر، والنظر يفضي إلى العلم، والعلم يقتضي موقفًا، والموقف يتحول إلى عمل، والعمل يترتب عليه الجزاء.

وإذا أعرض الإنسان عن الآيات، واستبدل بالعلم الهوى، وأنكر البعث، فقد جمع أسباب الخسران التي تكشفها السورة في مقاطعها المتتابعة.

الحركة البيانية والنفسية في السورة

تتنقل السورة بين أساليب متعددة تناسب اختلاف المقامات؛ فتبدأ بالتقرير، ثم تلفت النظر إلى آيات الكون، ثم تواجه الاستكبار بصيغة الوعيد، وتستحضر النعمة والتسخير، وتعرض التجربة التاريخية، ثم تنتقل إلى الأمر والنهي، وتكشف عن حقيقة الهوى، وتواجه إنكار البعث بالحجة، وتنتهي بمشاهد القيامة والحمد والكبرياء.

وتتجلى الحركة النفسية في انتقال الإنسان من مشاهدة النعمة إلى موقفه من المنعم، ومن سماع الآيات إلى الاستجابة لها أو الاستكبار عنها، ومن الغفلة عن المصير إلى مواجهة الحساب.

وتكشف السورة أن الإعراض ليس دائمًا ناشئًا عن غياب الدليل؛ فقد يكون الدليل حاضرًا، لكن الكبر يمنع صاحبه من الانقياد، وقد يكون العلم حاصلًا، لكن البغي يحول بين الإنسان وبين العمل بمقتضاه، وقد يستولي الهوى على النفس حتى ترى الباطل حقًا، وتستبعد ما يخالف رغباتها.

ومن ثم فإن السورة تعالج فساد المعرفة حين تنفصل عن الإخلاص، وفساد الإرادة حين تستبد بالهوى، وفساد التصور حين ينكر الإنسان حقيقة الآخرة.

وهذا التحليل النفسي مستفاد من سياق الآيات ودلالاتها، وليس تحميلًا لها بمصطلحات نفسية حديثة.

التصوير القرآني ومشهد الجاثية

يبلغ التصوير القرآني ذروته في المقطع الأخير، حين تنتقل السورة من تقرير الحقائق الغيبية إلى تجسيد مشهد الحساب أمام السامع.

فالأمم التي كانت تختلف في الدنيا، وتجادل في الحق، وتستكبر عن آيات الله، تقف في ذلك اليوم خاضعة، وتدعى إلى كتبها، وتواجه ما قدمت.

واختيار اسم السورة "الجاثية" يضع هذا المشهد في مركز الانتباه؛ فالجثو هيئة خضوع وانتظار وفزع، وهي صورة تناسب انكشاف سلطان الله وزوال مظاهر الاستكبار البشري.

وقد بدأ الخطاب بالإنسان الذي يرى آيات الله في الكون، وانتهى به وهو يرى حقيقة الحساب؛ وبين المشهدين تتحدد قيمة موقفه من الوحي والعمل والآخرة.

فالإنسان الذي كان يظن أن له أن يستكبر عن الحق دون تبعة، يجد نفسه في النهاية خاضعًا للحكم الذي لم يكن يقر به في الدنيا.

ثانيًا :المقاصد والهداية القرآنية الكلية لسورة الجاثية

تستخلص المقاصد الآتية من مجموع السورة وترابط موضوعاتها، وهي مقاصد جامعة، وليست معاني منفصلة عن التفسير التفصيلي.

أ .المقاصد الكبرى

المقصد الأول :ترسيخ مرجعية الوحي وإثبات أنه مصدر الهداية والحق.

يتجلى هذا المقصد في افتتاح السورة بتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، ثم وصف القرآن بأنه بصائر للناس وهدى ورحمة.

فالإنسان لا يستقل بإدراك جميع حقائق الوجود والمصير، ولا تكون أهواؤه معيارًا للحكم على الحق، وإنما يهتدي بالوحي الذي أنزله الله لعباده.

ومن آثار هذا المقصد أن يكون القرآن أصلًا في بناء الاعتقاد والتصور والسلوك، وأن تُعرض الآراء والمواقف عليه، لا أن يُجعل تابعًا للأهواء والرغبات.

المقصد الثاني :إقامة دلائل الربوبية من خلال آيات الكون وتسخيره للإنسان.

تعرض السورة آيات السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق، وتصريف الرياح، وتسخير البحر والفلك وما في السماوات والأرض.

وتجتمع هذه الدلائل على إثبات قدرة الله وحكمته وتدبيره، وأن النعم ليست مستقلة عن إرادته، ولا يصح أن تتحول إلى أسباب للغفلة عن المنعم.

ومن مقتضى هذا المقصد أن ينظر الإنسان إلى الكون نظر اعتبار وشكر، وأن يدرك أن الانتفاع بالنعم مسؤولية تستوجب الاعتراف بفضل الله.

المقصد الثالث :تقرير مسؤولية الإنسان الفردية وعدل الله في الجزاء.

يؤكد هذا المقصد أن كل نفس مسؤولة عن كسبها، وأن الله لا يسوي بين أهل الإيمان والصلاح وأهل الإجرام والفساد، وأن الجزاء قائم على الحق والعدل.

وتظهر أهميته في مواجهة التصورات التي تفرغ العمل من قيمته، أو تجعل المآل الأخروي واحدًا مع اختلاف المواقف والأعمال.

ومن آثاره العملية أن يستحضر الإنسان مسؤوليته عن اختياراته، وألا يتكل على نسب أو جماعة أو دعوى مجردة من العمل الصالح.

المقصد الرابع :التحذير من اتباع الهوى والاستكبار عن الحق بعد ظهوره.

تكشف السورة أن الإعراض عن الوحي قد ينشأ عن الكبر أو البغي أو استيلاء الرغبة على الحكم، وأن اتباع الهوى قد يبلغ بالإنسان أن يجعل رغباته حاكمة على إدراكه ومواقفه.

وتعرض تجربة بني إسرائيل نموذجًا للاختلاف الذي يقع بعد مجيء العلم، حين يحمل البغي أصحابه على ترك مقتضى الحق.

ومن آثار هذا المقصد ضرورة مجاهدة الهوى، والإنصاف في طلب العلم، وقبول الحق متى ظهر دليله، وعدم جعل المكانة الاجتماعية أو الموروث أو الرغبة الشخصية حاكمًا على الوحي.

المقصد الخامس :تثبيت حقيقة البعث والوقوف بين يدي الله.

تواجه السورة إنكار الآخرة، وتقرر أن الحياة والموت بيد الله، وأنه يجمع الخلق ليوم القيامة، وأن ملك السماوات والأرض له وحده.

ثم تعرض مشهد الحساب والكتب والجزاء، لتجعل الإيمان بالآخرة حقيقة حاكمة على حياة الإنسان.

ومن آثار هذا المقصد ألا يحصر المرء نظره في المكاسب العاجلة، وأن يزن أعماله بما تؤول إليه في الدار الآخرة.

المقصد السادس :إفراد الله بالحمد والكبرياء والحكم المطلق.

تجمع خاتمة السورة ما تفرق في مقاطعها من دلائل الربوبية، فتثبت لله الحمد والملك والكبرياء والعزة والحكمة.

وهذا المقصد هو الذي تنتظم تحته سائر المقاصد؛ لأن الوحي والخلق والتسخير والإحياء والإماتة والبعث والجزاء كلها من آثار ربوبيته وسلطانه.

ومن مقتضاه إخلاص العبودية لله، وتعظيم أمره، والتسليم لحكمه، وتنزيهه عن الشريك والنظير.

ب .الهدايات القرآنية التربوية الكلية

الهداية الأولى :لا تنفصل معرفة الحق عن الاستعداد لقبوله.

تربي السورة الإنسان على أن امتلاك القدرة على التفكير وسماع الحجة لا يكفي وحده للوصول إلى الهداية؛ فقد يسمع الإنسان الحق ثم يستكبر عنه، ويعرف الدليل ثم يعرض عنه .ولذلك يحتاج طلب الحق إلى صدق القصد، والتواضع، والاستعداد للانقياد.

الهداية الثانية :النعم ينبغي أن تزيد الإنسان شكرًا لا اغترارًا.

إن تسخير ما في السماوات والأرض للإنسان يقتضي منه الاعتراف بفضل الله، واستعمال النعم في الخير، وعدم تحويل الانتفاع بالدنيا إلى غفلة عن الآخرة.

الهداية الثالثة :العلم أمانة، والانحراف بعد ظهوره أشد خطراً.

تعرض السورة اختلاف بني إسرائيل بعد مجيء العلم، لتبين أن العلم لا يؤدي إلى الصلاح بمجرده إذا استولى البغي على النفس .ومن ثم ينبغي أن يقترن العلم بالتجرد والإنصاف والعمل.

الهداية الرابعة :اتباع الهوى يفسد ميزان الإنسان في الحكم على الأشياء.

فالهوى إذا استبد بصاحبه لم يعد ينظر إلى الحق من جهة دليله، وإنما يزن الأمور بموافقتها لرغباته .ولذلك كان من أعظم أبواب الهداية أن يحاكم الإنسان رغباته إلى الحق، لا أن يحاكم الحق إلى رغباته.

الهداية الخامسة :الإيمان بالآخرة يعيد ضبط علاقة الإنسان بالحياة الدنيا.

حين يوقن الإنسان بأنه سيقف بين يدي الله، يدرك أن الحياة ليست غاية مستقلة، وإنما ميدان للعمل والابتلاء، وأن ما يفوته من متاع الدنيا لا يقارن بما ينتظره من الجزاء.

الهداية السادسة :العدل الإلهي يقتضي اختلاف الجزاء باختلاف الأعمال.

فلا يستوي المحسن والمسيء، ولا تضيع الحقوق، ولا يحمل أحد تبعة غيره .وهذا يربي النفس على تحمل المسؤولية، ويمنعها من الاغترار بالأماني والدعاوى.

الهداية السابعة :نهاية الاستكبار خضوع، ونهاية الإعراض انكشاف الحقيقة.

تختم السورة مشاهدها بجثو الأمم ودعوتها إلى كتبها، فتربي الإنسان على أن القوة والمكانة والجدل لا تغني عنه شيئًا إذا وقف للحساب، وأن النجاة تكون بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

ج .الهداية القرآنية بحسب المستويات

الهداية العقدية

تؤسس السورة لتوحيد الربوبية والألوهية، وتقرر أن الله وحده مالك السماوات والأرض، والمنفرد بالإحياء والإماتة والبعث والحكم، وأن القرآن تنزيله وهدايته لعباده.

كما تؤكد أن الإيمان بالآخرة جزء أصيل من التصور الصحيح للوجود، وليس قضية ثانوية يمكن فصلها عن حقيقة الإيمان بالله.

الهداية السلوكية

تدعو السورة إلى التواضع للحق، وترك الاستكبار، ومقاومة الهوى، والإنصاف في العلم، وشكر النعم، والاستعداد للحساب.

وتكشف أن السلوك الإنساني ليس منفصلًا عن الاعتقاد؛ فالتصور الفاسد قد يقود إلى العمل الفاسد، كما أن الإيمان الصحيح يقتضي أثرًا في العمل والموقف.

الهداية الاجتماعية

تقرر السورة أن الاختلاف بين الناس لا يبيح البغي، وأن العلم ينبغي أن يكون وسيلة لإقامة الحق لا ذريعة للخصومة والاستعلاء.

كما أن تقرير المسؤولية الفردية يمنع تحميل الأبرياء تبعات غيرهم، ويؤسس لمبدأ العدل في التعامل مع الناس.

ولا يعني ذلك أن المسؤولية الفردية تلغي الواجبات الجماعية، وإنما يعني أن كل إنسان مسؤول عن عمله، وأن الحقوق والواجبات لا تسقط بذوبان الفرد في الجماعة.

الهداية الإنسانية والحضارية

تفتح السورة أمام الإنسان أفق النظر في الكون وتسخيره، وتربط الانتفاع بموارد الوجود بمعرفة الخالق وشكره.

فالتقدم في الانتفاع بالمخلوقات لا يكتمل بمجرد القدرة المادية، بل يحتاج إلى هداية تضبط مقاصد الانتفاع، وتمنع الظلم والفساد والاغترار بالقوة.

الهداية المتعلقة بالنبوة والرسالة

تقرر السورة أن الرسول ﷺ مأمور باتباع الشريعة التي جعلها الله له، وأن الهداية ليست خاضعة لأهواء المعترضين ولا لرغبات أصحاب المصالح.

كما تبين أن وظيفة الوحي إرشاد الناس وإقامة الحجة عليهم، وأن الإعراض عنه لا يغير من حقيقته ولا من استحقاق المكذبين للجزاء.

الهداية المتعلقة بالرحمة والعدل

تصف السورة القرآن بأنه هدى ورحمة لقوم يوقنون، وتجمع بين الرحمة في الهداية والعدل في الجزاء.

فالرحمة ليست إلغاء للمسؤولية، والعدل ليس مناقضًا للرحمة؛ بل إن الله يهدي عباده بكتابه، ويبين لهم طريق الحق، ثم يحكم بينهم بما عملوا، ولا يظلم أحدًا.

د .التنزيل المعاصر المنضبط

تتجاوز دلالات سورة الجاثية حدود الوقائع التاريخية التي نزلت في سياقها، من غير أن يعني ذلك تحويلها إلى خطاب معاصر منفصل عن معناها الأصلي.

ويمكن تنزيل مقاصدها على واقع الإنسان والمجتمع في وجوه متعددة:

في مجال المعرفة والتعليم :تدعو السورة إلى بناء المعرفة على الدليل والإنصاف، وتحذر من أن يتحول العلم إلى أداة للجدل والتعصب أو خدمة الأهواء .فالمعرفة التي تنفصل عن الأمانة قد تصبح وسيلة لتبرير الباطل بدل كشف الحقيقة.

في مجال الإعلام وتداول المعلومات :يقتضي التحذير من الاستكبار عن الآيات والاستهزاء بها أن يتعامل الإنسان مع الحقائق بجدية، وألا يجعل السخرية أو التكرار أو الانتماء الجماعي بديلًا عن التثبت والنظر.

وهذا تنزيل تربوي عام، وليس تفسيرًا تاريخيًا مباشرًا للآيات.

في مجال الاقتصاد والانتفاع بالموارد :يوجه تسخير الكون إلى إدراك أن الموارد نعم إلهية، وأن الانتفاع بها لا ينفصل عن الشكر والمسؤولية .ومن ثم فإن الإسراف والفساد والاعتداء على حقوق الآخرين تتعارض مع مقتضى الأمانة في الانتفاع بالنعم.

في مجال بناء الشخصية :تعلم السورة الإنسان ألا يجعل رغباته الشخصية معيارًا للحقيقة، وألا يرفض النصيحة لمجرد أنها تخالف ما اعتاده أو ما يرغب فيه .فمجاهدة الهوى شرط مهم لاستقامة الحكم والسلوك.

في مجال العدالة والمساءلة :يقرر مشهد الحساب أن العمل لا يضيع، وأن الإنسان مسؤول عن اختياراته .وهذا يرسخ قيمة المحاسبة والأمانة، سواء في المسؤوليات الفردية أو في مواقع العمل العام.

في مجال مواجهة النزعة المادية :تواجه السورة حصر الحياة في الدنيا، وتعيد الإنسان إلى حقيقة المصير .وليس في ذلك دعوة إلى ترك عمارة الأرض، بل إلى إعمارها في ضوء الإيمان بالآخرة، حتى لا تتحول الوسائل إلى غايات، ولا يصبح النجاح المادي مقياسًا وحيدًا لقيمة الإنسان.

ومن المهم التنبيه إلى أن هذه التطبيقات معانٍ مستفادة من المقاصد العامة للسورة، وليست أسبابًا لنزول آياتها، ولا بدائل عن تفسيرها في سياقها القرآني.

ثالثًا :الخاتمة التفسيرية الجامعة لسورة الجاثية

تتجلى سورة الجاثية في مجموعها خطابًا قرآنيًا متكاملًا يرد الإنسان إلى حقيقة وجوده، ويكشف له موقعه من ربه، وموقفه من الوحي، ومسؤوليته عن عمله، ومصيره الذي ينتهي إليه.

فقد افتتحت السورة بإثبات أن هذا الكتاب تنزيل من الله العزيز الحكيم، ثم لم تترك هذه الحقيقة دعوى مجردة، بل أحاطتها بدلائل القدرة في السماوات والأرض، وما يجري فيهما من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق، وتصريف الرياح، وتسخير البحر والفلك، وما أودع الله في الوجود من منافع للإنسان.

وبذلك جمعت في مطلعها بين آيات الوحي وآيات الكون، لتقرر أن الحق الذي يدعو إليه القرآن هو الحق الذي تشهد به دلائل الخلق، وأن النظر الصحيح في الكون لا يقف عند ظواهر الأشياء ومنافعها، بل يتجاوزها إلى معرفة الخالق المدبر.

غير أن السورة تكشف في الوقت نفسه أن قيام الحجة لا يستلزم قبولها من كل إنسان؛ فقد تتلى آيات الله على المرء، ويعرف دلالتها، ثم يحمله الاستكبار على الإعراض عنها، حتى يتخذ منها موضع استهزاء ومجادلة .ومن هنا يظهر أن أزمة الإنسان ليست دائمًا أزمة دليل، وإنما قد تكون أزمة استجابة، حين تفسد الإرادة ويستبد الكبر والهوى بالنفس.

ثم تنقل السورة النظر إلى نعم الله وتسخيره، لتبين أن الإنسان لا يعيش مستقلًا عن فضل ربه، وأن ما يملكه من أسباب الانتفاع إنما هو من آثار رحمته وتدبيره .فإذا عرف النعمة وجب أن يعرف المنعم، وإذا أدرك التسخير وجب أن يقوده ذلك إلى الشكر والعبودية.

وتستحضر السورة تجربة بني إسرائيل لتبين أن نزول الكتاب وظهور العلم لا يمنعان وقوع الاختلاف إذا دخل البغي في النفوس .فالعلم قد يكون حجة لصاحبه، وقد يكون وبالًا عليه إذا عرف الحق ثم أعرض عنه أو جادل فيه طلبًا للغلبة والمصلحة.

ومن هنا جاء الأمر باتباع الشريعة، والتحذير من اتباع أهواء الذين لا يعلمون؛ لأن الشريعة ليست رأيًا بشريًا قابلًا لأن يخضع لرغبات الناس، وإنما هي هداية من الله، تقوم عليها بصائر العقول واستقامة الأعمال.

ثم تعود السورة إلى تقرير حقيقة الجزاء، فتنكر أن يستوي أهل الإيمان والعمل الصالح بأهل السيئات والإجرام، وتربط اختلاف المآلات باختلاف الأعمال .وليس ذلك إلا مقتضى الحق والعدل؛ إذ يستحيل أن تكون حياة الطاعة وحياة الإجرام سواء في الحكم الإلهي، أو أن يضيع عمل المحسن كما لا يضيع عمل المسيء.

وفي أثناء ذلك تكشف السورة عن أصل خطير من أصول الانحراف، وهو اتخاذ الهوى إلهًا؛ فالإنسان حين يجعل رغباته مصدر الحكم، ويعرض عن هداية الله، يفسد ميزان معرفته، ويصبح أسيرًا لما يريد، لا لما يقتضيه الحق.

ومن هذا الانحراف تتولد مقالة منكري البعث، الذين يحصرون الحياة في الدنيا، وينسبون الموت والحياة إلى مرور الزمان، وينكرون أن يعيد الله الخلق بعد موتهم .فتواجه السورة هذا الإنكار بإثبات سلطان الله في الإحياء والإماتة، وأن الذي خلق أول مرة قادر على جمع الخلق للبعث والحساب.

ثم تبلغ الحجة غايتها حين تقرر أن ملك السماوات والأرض لله وحده، وأن قيام الساعة ليس أمرًا خارجًا عن سلطانه، وأن الأمم كلها تقف بين يديه خاضعة، وتدعى إلى كتبها، وتواجه حقيقة ما قدمت.

وهنا يتكشف المعنى الأعمق لاسم السورة؛ فالأمم التي استكبرت في الدنيا تجثو يوم القيامة، والأصوات التي علت بالجدل والاستهزاء تخضع أمام الحكم الإلهي، والدعاوى التي ظن أصحابها أنها تنجيهم لا تغني عنهم شيئًا، لأن الكتاب الذي أحصى الأعمال يعرض عليهم، والجزاء الذي أخبر به الوحي يتحقق أمامهم.

ولا تقف السورة عند مشهد الخسارة والعذاب، بل تكشف أن ذلك اليوم هو يوم ظهور الحقائق وانكشاف الأعمال، وأن ما كان الإنسان يستهين به أو يسخر منه في الدنيا يصبح واقعًا لا يستطيع دفعه أو إنكاره.

ثم تختم السورة بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، وإثبات الكبرياء له في السماوات والأرض، ووصفه بالعزة والحكمة.

وهذا الختام هو تمام البناء الذي بدأت به السورة؛ فقد افتتحت بتنزيل الكتاب من العزيز الحكيم، واختتمت بإثبات الكبرياء والعزة والحكمة لله .وبين البداية والنهاية انتظمت دلائل الخلق، وآيات الوحي، ونعم التسخير، ومسؤولية الإنسان، وحقائق البعث، ومشاهد الحساب.

فالحمد الذي ختمت به السورة ليس مجرد ثناء يأتي بعد مشاهد القيامة، وإنما هو إعلان للحقيقة التي قامت عليها السورة كلها :أن الله هو رب كل شيء، وله الملك والحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وأن حكمته لا تنفصل عن عدله، وعزته لا يخرج عن سلطانها أحد.

وبذلك ترسم سورة الجاثية طريقين متقابلين :طريق الوحي والإيمان واليقين والشكر والعمل الصالح، وطريق الهوى والاستكبار والإعراض وإنكار الآخرة .ثم تضع الإنسان أمام حقيقة لا تتغير بتغير مواقفه :أنه سيقف بين يدي الله، وأن عمله محفوظ، وأن الجزاء واقع بالحق.

ورسالة السورة الجامعة أن الإنسان لا يملك أن يعيش غافلًا عن ربه، ولا أن يجعل هواه حاكمًا على الوحي، ولا أن يحصر وجوده في متاع الدنيا؛ فإن الكون كله شاهد بربوبية الله، والقرآن هداية منه، والعمل مسؤولية، والآخرة موعد الفصل، والحمد والكبرياء لله وحده، العزيز الحكيم.

المراجع

(١) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، ولا سيما تفسير الآية السابعة والعشرين، في بيان ملك الله للسماوات والأرض، ومعنى خسران المبطلين .وقد أمكن الاطلاع على نص التفسير من خلال منصة القرآن الكريم بجامعة الملك سعود .

(٢) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة الجاثية، النص المتاح إلكترونيًا في موقع آية قرآن، ويشتمل على مادة تفسيرية لآيات السورة .

(٣) الفضل بن الحسن الطبرسي، *جوامع الجامع*، الجزء الثالث، تفسير سورة الجاثية، الآيات من ٢١ إلى ٢٧، وقد تمت مراجعة النص الإلكتروني المتاح في موقع هدى القرآن، والاستفادة منه في الإشارة إلى اختلاف التوجيه الإعرابي والقرائي في قوله :"سواء محياهم ومماتهم".

خاتمة الكتاب

حين تجثو الأمم بين يدي الله

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد انتهت بنا رحلة التدبر والتفسير في سورة الجاثية إلى مشهد عظيم، تتلاقى عنده خيوط السورة، وتنكشف فيه حقائق الوجود، وتسقط أمامه دعاوى الغرور والاستكبار؛ إنه مشهد الوقوف بين يدي الله، يوم تجثو كل أمة، وتدعى إلى كتابها، وتوضع الموازين بالحق، ويعلم كل إنسان حقيقة ما قدمت يداه.

لقد أخذتنا آيات هذه السورة من آفاق السماوات والأرض، ومن مشاهد الخلق والتدبير، إلى أعماق النفس الإنسانية، وما يعتريها من إيمان وإعراض، وشكر وجحود، وتسليم واستكبار. ثم انتقلت بنا إلى حقيقة المسؤولية الفردية، وأن الإنسان لا يحمل إلا تبعة عمله، وأن اختلاف الناس في طريق الحق والباطل ليس أمرًا تنتهي آثاره عند حدود الحياة الدنيا، بل هو اختلاف تتكشف عواقبه يوم الفصل.

وفي أثناء هذه الرحلة رأينا كيف تقيم السورة حجتها على الإنسان من حوله ومن داخله؛ فالكون كتاب مفتوح لمن أراد الاعتبار، والوحي نور لمن طلب الهداية، والآيات شواهد قائمة لا تنقصها الدلالة، وإنما يحتاج القلب إلى أن يتخلص من سلطان الهوى حتى يبصر الحق ويستجيب له.

ورأينا كيف أن الاستكبار قد يحجب صاحبه عن أعظم الحقائق، وأن الاستهزاء بالآيات لا يغير من حقيقتها شيئًا، وأن الإعراض عن الوحي لا يسلبه سلطانه، وإنما يحرم المعرض من نور الهداية، ويتركه أسيرًا لظنونه وأهوائه.

ومن أعمق ما تكشفه السورة أن العلم وحده لا يضمن النجاة ما لم يصحبه اتباع للحق؛ فقد يأتي الإنسان من البينات ما تقوم به عليه الحجة، ثم يختلف ويعرض ويستكبر، لا لخفاء

الدليل، ولكن لفساد القصد أو غلبة الهوى .ولذلك كان الأمر باتباع شريعة الله، والتحذير من اتباع أهواء الذين لا يعلمون، من أعظم ما تقرره السورة في شأن الاستقامة على الوحي.

ثم تضعنا السورة أمام الحقيقة التي لا مهرب منها :أن الحياة الدنيا ليست نهاية الطريق، وأن الموت ليس انطفاءً تنتهي عنده المسؤولية، وأن من أحيا الخلق أول مرة قادر على إعادتهم، وأن اليوم الذي يجتمعون فيه للحساب آتٍ لا ريب فيه.

وهنا يبلغ الخطاب القرآني غايته؛ فلا يعود الإنسان قادرًا على الاحتماء بإنكار البعث، ولا على تعليق مصيره على الأماني، ولا على إخفاء أعماله خلف دعاوى زائفة .ففي ذلك اليوم تنكشف السرائر، وتظهر الصحائف، ويقف كل إنسان أمام حقيقة اختياره، ويعلم أن ما كان يستهين به في الدنيا هو اليوم واقع لا يستطيع دفعه.

ولعل أعظم ما ينبغي أن يخرج به القارئ من هذه السورة أن الإيمان ليس مجرد معرفة نظرية بوجود الله، ولا مجرد إقرار بآياته، بل هو موقف شامل من الوحي والحياة والعمل والمصير؛ إيمان يثمر شكرًا عند النعمة، وخضوعًا عند الأمر، وصبرًا عند الابتلاء، وعدلًا في التعامل، واستعدادًا للقاء الله.

فكم من إنسان رأى آيات الله ثم أعرض عنها !وكم من إنسان عرف الحق ثم غلبه هواه !وكم من إنسان اغتر بامتداد الأجل، وسعة الرزق، وزينة الدنيا، حتى نسي أن وراء هذه الحياة موقفًا لا ينفع فيه إلا صدق الإيمان وصالح العمل.

ومن هنا فإن سورة الجاثية لا تريد من قارئها أن يقف عند معرفة مصير المكذبين فحسب، بل تدعوه إلى أن يسأل نفسه قبل أن يأتي ذلك اليوم :أين موقفي من آيات الله؟ وكيف أتلقى أمره؟ وهل أقيس الحق بما تهواه نفسي، أم أزن نفسي بميزان الحق؟ وهل جعلت نعم الله طريقًا إلى شكره، أم حجابًا عن ذكره؟ وهل أعددت للقاء الله ما أرجو أن ألقاه به؟

إنها أسئلة ينبغي ألا تنتهي بانتهاء قراءة السورة، بل تبقى حاضرة في القلب، تصحح مسار الإنسان، وتردّه كلما شرد إلى طريق العبودية والاستقامة.

في هذا الكتاب

ومن عجيب تناسب السورة أن تنتهي بعد مشاهد القيامة والحساب والجزاء بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض ورب العالمين، وكأن هذا الختام يعيد القلب إلى الأصل الذي قامت عليه جميع حجج السورة :أن الله هو الخالق والمالك والمدبر والحاكم، وأن كل شيء خاضع لسلطانه، وأن الحمد كله له، والكبرياء والعظمة له وحده.

قال الله تعالى :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ .

فهذا هو المآل الذي تنتهي إليه السورة :حمدٌ لا يشاركه فيه أحد، وربوبية لا يخرج عنها شيء، وكبرياء لا يليق إلا بجلاله، وعزة لا تُغلب، وحكمة لا يعتريها نقص.

وإذا كان الإنسان قد جثا يوم القيامة خاضعًا لحكم الله، فإن مقتضى إيمانه في الدنيا أن يجثو قلبه بين يدي ربه خضوعًا وطاعة، وأن يستسلم للحق قبل أن يأتي يوم لا يملك فيه لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وأن يجعل الحمد لله حقيقة تسري في اعتقاده وقوله وعمله.

فيا قارئ سورة الجاثية، لا تجعل آخر عهدك بهذه السورة إغلاق صفحات الكتاب، بل اجعلها بداية عهد جديد مع آيات الله؛ عهدًا من التدبر الصادق، والعمل الصالح، ومراجعة النفس، والتحرر من أسر الهوى، وحسن الاستعداد للقاء الله.